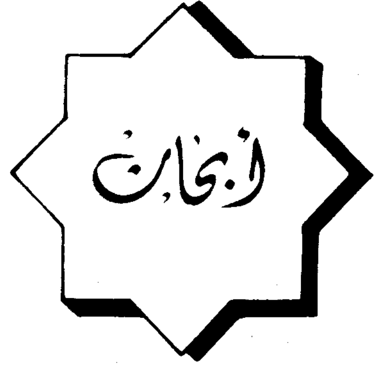


ديناميات الخلاف بين المسلمين(*) (٢)

د. عبد المنعم شحاتة(**)

أولاً : أنواع الخلافات :

إن تحديد أنواع الخلافات ، ومستويات كل نوع منها ، هى الخطوة الأولى لفهم ديناميات الخلاف ، وذلك الفهم الذى يمكننا من التحكم فى درجة الخلاف ومداه؛ لأن الخلافات ليست واحدة دائماً، إنما تتنوع بتباين عوامل مختلفة ، منها :

١ ـ النوع : فالبشر فى بداية الخلق فرد واحد هو آدم عليه السلام ، ثم كان أول اختلاف فى البنية الجسمية وتركيبها العضوى ﴿**وخلق منها زوجها**﴾ (النساء:١) ، لجعل إحدهما سكناً للآخر. ثم كان الاختلاف الثانى فى اللون ﴿**ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه**﴾ (فاطر:٢٨)، وذلك ﴿**لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات:١٣) . ثم كان الاختلاف الثالث فى الألسنة ﴿**ومن آياته خلق السماوت والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾ (الروم : ٢٢) . وذلك لتبادل النفع والفائدة بواسطة تبادل الخبرات وسهولة ذلك .

٢ ـ العقيدة أو نسق الاعتقادات أو الأحكام التى يصدرها فرد ـ أو مجموعة أفراد ـ على جوانب الكون وخالقه ، فإذا اتصلت هذه الأحكام بالخالق سبحانه وتعالى ، كان البشر ثلاثة أقسام:

(*) ينقسم هذا البحث على ثلاثة أجزاء في ثلاثة أعداد متتالية ، وهذا الجزء هو الجزء الثاني منه .

(**) أستاذ مساعد علم النفس بجامعتي المنوفية والملك سعود .

أ ـ أهل إيمان يؤمنون بوجود الله وقدرته والبعث والحساب .

ب ـ أهل كفر ينكرون كل هذا .

جـ ـ أهل نفاق يظهرون الإيمان بوجود الله ويبطنون الكفر .

أما إذا كان موضوع هذه الأحكام جوانب أخرى من الكون غير خالقه ، إلا أنها تتسق مع المعتقدات عن الخالق ، كان أهل الإيمان أو أهل الكفر ـ أمماً متعددة ، فأهل الإيمان ينقسمون إلى : أمة اليهود ـ أمة النصارى ـ أمة الإسلام... وكل أمة منهم تنقسم إلى فرق ، وكل فرقة منها تنقسم إلى جماعات تندرج تحتها (الشهرستاني ، ١٩٦٨ : ٣٦ ـ ٣٨) ويعبر ابن كثير ١٩٨٠ ، ١ : ٩٨) عن هذا الإنقسام بقوله : « المؤمنون صنفان : مقربون وأبرار ، والكافرون صنفان : دعاة ومقلدون ، والمنافقون صنفان : منافق خالص ، ومؤمن فيه شعبة من شعب النفاق » وأورد قول الرسول صلي الله عليه وسلم «القلوب أربعة : قلب أسرج : قلب المؤمن فيه نوره ، وقلب أغلف : قلب الكافر ، وقلب منكوس : قلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وقلب مصفح : قلب فيه إيمان ونفاق » .

ويتم انقسام الأمة الواحدة إلى فرق ، والفرقة الواحدة إلى جماعات بفضل الاستدخال Internalization ؛ وهو العملية التى من خلالها يستوعب الفرد الدين ـ أو أى نسق قيمى ـ ويعيد صياغته ليصبح ذا معنى يفهمه الفرد القائم بهذه الصياغة ، ويمكنه من التعامل مع المجهول والغيبيات ، ويوجهه فى هذا التعامل . وتتفاوت درجات الاستدخال وأنماطه من فرد لآخر مما يؤدى لاختلافات بينهم فى فهم الدين والالتزام بتعاليمه (Ryam et al, 1993).

٣ ـ على أساس أسباب الخلاف بين أهل أمة الإسلام :

فبناء على سبب الخلاف يمكن التمييز بين نوعين :

أ ـ خلافات أسبابها خلقية كالغرور وحب الذات وسوء الظن بالآخرين ، والتعصب والعصبية .. وما شابه ، والخلاف الناتج عنها خلاف مذموم .

ب ـ خلافات أسبابها فكرية لاختلاف وجهة النظر وزاوية الرؤية وتقدير النتائج والوجهة العقلية والمزاجية للأفراد وظروف البيئة التى يعيشون فيها، والخلاف الناتج عن هذه الأسباب خلاف محمود وفطرى ومقبول (يوسف

القرضاوى ، ١٩٩٠ : ١٣) .

٤ ـ على أساس موضع الخلاف نميز بين خلافات :

أ ـ فى أصول العقيدة أو الأساس الفكرى (الإيديولوجى) الذى تنطلق منه كافة مواقف الأفراد وتصرفاتهم ، والمعايير التى يحتكمون إليها ومصدر هذه المعايير. مثل الخلاف بين المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية (الحاكمية لله) والعلمانيين (ما لله وما لقيصر لقيصر) فى مصر المعاصرة ، ومثل الخلاف بين أهل السنة وكل من الخوارج والشيعة والمعتزلة ... إلخ، وما تشعب عنهم من جماعات حصرها البغدادى المتوفى عام ١٠٣٧م (ب ت : ١٠ ـ ١١) والشهرستانى المتوفى عام ١١٥٣م (١٩٦٨ : ١٢ ـ ١٣) ومحمد أبو زهرة (١٩٨٩) ، وحصروا الأصول التى اختلفوا فيها ، وهو اختلاف ـ أى الاختلاف فى أصول العقيدة ـ منهى عنه ومذموم .

ب ـ فى فروع العقيدة ، أى فى كل ما يتم التوصل إليه بالقياس والاجتهاد ـ لا بالوحى كما فى الأصول ـ حيث يختلف الأفراد فى فهم النص (قرآن وسنة) وفى تأويله ؛ لتباين قدراتهم واستعداداتهم وظروف البيئة التى يعيشون فيها ... وما شابه ، مثل الخلاف الذى كان بين أئمة المذاهب الفقهية الخمسة وتابعيهم ، وكان اختلافاً فى طلب الحقيقة ـ كما يقول محمد أبو زهرة (١٩٨٩ : ٢٥٤) ـ رائده الإخلاص ، ويشحذ العقول ويوصل إلى الأمر ، وهو اختلاف لا تترتب عليه آثار سلبية تضعف وحدة المسلمين ، كما يتناسب هذا الاختلاف مع الفطرة ، ويسمح بتعدد البدائل التى تناسب ظروف معيشة كل فرد أو مجموعة من الأفراد ويحقق يسر الإسلام؛ لذا يقبل الإسلام هذا النوع من الاختلاف ؛ إذ يحض على الاجتهاد ويحبذ محاولة فهم النصوص وتأويلها ، فللمجتهد أجر إذا أخطأ وأجران إن أصاب ـ بنص الحديث الشريف ـ بشرط أن يلتزم المجتهد ضوابط وآداباً معينة حتى لا يتحول الإختلاف إلى شقاق(*) (عرض هذه الضوابط والآداب : طه جابر العلوانى ، ١٩٨٤ ، محمد أبو

(*) فخلافات المسلمين فى بادئ الأمر كانت خلافات رأى ووجهة نظر ناتجة عن اجتهاد فى فهم النصوص ، ولم يتجاوز الخلاف ذلك المدى إلا بعد تدخل الحكومات والشعوبيين (محمد أبو زهرة ، ١٩٨٩ : ١٧ ـ ١٨).

زهـــــرة ، ١٩٨٩ : ٣٢١ - ٣٢٨) . ويعد الاختلاف الناتج عن هذا الاجتهاد - كما يقول الشاطبى - رحمة بالأمة ؛ إذ بإمكـــان كل فرد الأخذ برأى أحد الأئمة، إذا تناسب مع ظروف يعايشها فى لحظة ما ، أو كما يقول خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز : «ما يسرنى أن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة» (محمد أبو زهرة ، ١٩٨٩ : ٢٥٤ ، يوسف القرضاوى ، ١٩٩٠ : ٤٩) .

جـ - فى المواقف الحياتية اليومية ، والتى تختلف تصورات الأفراد عنها أو اتجاهاتهم نحوها أو أفعالهم إزاء هذه المواقف التى قد تكون قضية اجتماعية أو سياسية معينة ، مثل اختلاف المهاجرين والأنصار فى شأن خلافة رسول الله ﷺ، ومثل الخلاف بين فئات المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع المصرى من حيث توقيت هذا التطبيق : فوراً أم بالتدريج ، أو اختلافهم فى وسيلة هذا التطبيق : بالقوة والعنف أم بالنصح والدعوة ، أو اختلافهم فى مدى هذا التطبيق : على كل نواحى الحياة أم على جرائم الحدود المنصوص على أحكامها فقط ، أو الاختلاف فى الجمهور الذى يشمله هذا التطبيق : كل الشعب المصرى أم المسلمون منه فقط (عبد الحليم محمود السيد ، ١٩٨٥) ، ومثل الخلافات بين فئات الفرقة الواحدة من المسلمين، وتؤدى هذه الخلافات إلى انقسامها لجماعات ، فالشيعة على سبيل المثال ينقسمون إلى أكثر من عشرين جماعة ، وكذلك الخوارج والمعتزلة ... وهكذا. ومثل الخلافات بين فئات المذهب الفقهى الواحد . وهكذا تنقسم الأمة إلى عدة فرق أو مذاهب سياسية أو أحزاب أو مذاهب فقهية ، وتنقسم كل فرقة أو حزب أو مذهب فقهى منها إلى عدة جماعات . وكل هذه الانقسامات تترجم الاختلافات بين المسلمين - أو أفراد المجتمع - لتباين إدراكاتهم للقضية (أو الموقف - موضع الاختلاف، وتنوع آرائهم فيها وتعدد مسالكهم نحوها، وكما سبقت الإشارة ، فإن كل هذا يعبر عن اختلاف دائم وقائم إلى يوم القيامة ، وليس بالإمكان منع هذا الاختلاف أو إلغاؤه أو تجاهله ، وإنما الاسلوب الوحيد المتاح للتعامل معه هو توجيهه لصالح الأمة والمجتمع ، بحيث

تتحقق التعددية والوحدة فى الآن ذاته ، ويقتضى هذا التوجيه تحديد مستوى الاختلاف .

٥ ـ على أساس مستوى الاختلاف ، يمكن التمييز بين مستويات ثلاثة :

أ ـ خلاف محدود ؛ إذ يقف عند موضع بعينه ، يعترف الأفراد باختلافهم فيه، ولايمنع اختلافهم هذا من إظهار اتفاقهم على مواضع أخرى . وهذا المستوى هو الذى تم وصفه فى الفقرة السابقة (أى (جـ) من الخلافات المصنفة على أساس موضع الاختلاف ، أى تباين مواقف الأفراد من قضية معينة ، وكذلك الفقرة (ب) ، أى الخلافات فى الفروع من العقيدة الإسلامية)، وهذا المستوى المحدود من الخلاف يقبله الإسلام ولاينكره ، بل يضع الضوابط لتوجيهه ، فأفكار الناس وأقوالهم وأفعالهم تختلف بتباين خصال شخصياتهم وتنوع قدراتهم وإمكانياتهم، وتعدد حاجاتهم واهتماماتهم وظروف معيشتهم ... إلخ.

ب ـ خلاف شديد ، ومن السهل أن يتعدى ـ لشدته هذه ـ موضع الاختلاف إلى مواضع أخرى ليست محل خلاف ، مما يصعب معه الاتفاق ، مثال ذلك ، الخلافات بين المسلمين فى الرأى من قضايا فقهية معينة ، والتى كانت محدودة في البداية ، ثم إشتدت حدتها واتسع مداها بسبب تدخل الملوك والشعوبيين ومحاولاتهم إذكاء الخلاف وزيادة الهوة بين المتخالفين ، حتى أصبح بأس المسلمين بينهم (محمد أو زهرة ، ١٩٨٩ : ١٧ ـ ١٨) ، ومثل الخلاف الذى كان بين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والخارجين عليه بشأن التحكيم بينه وبين معاوية ، وذلك الخلاف الذى اقتصر فى البداية على هذا الموضع ، ثم اشتد واتسع حتى أصبح الالتقاء بعيداً .

جـ ـ خلاف بالغ الشدة ، يعقبه نزاع يصعب معه الالتقاء ـ إن يكن ميئوساً منه ـ ويسمى شقاقاً (خلاف يؤدى للعداوة والاقتتال) .

ثانياً : أضرار تحول الخلاف المحدود إلى خلاف شديد أو إلى شقاق :

إذا انتقل الاختلاف من المستوى المحدود المقبول والمطلوب إلى المستوى المذموم أى الشديد أو المنهى عنه أى بالغ الشدة (الشقاق) ، فإن هذا الانتقال فى المستوى يؤدى إلى إلحاق الأضرار بالمتخالفين ، من هذه الأضرار :

١ - الجهل بمعلومات قد تفيد :

يؤدى الاختلاف الشديد - أو الشقاق - بين مجموعتين من أفراد الأمة إلى رفض إحداهما الأخرى ، ورفض إنتاج أعضائها الفكرى والعملى ، ويعني هذا الرفض خسارة ما قد يكون عوناً لحل مشكلة ما تواجه أحد المتخالفين، وسوف يتضح لاحقاً - إن شاء الله - كيف يؤدى الرفض إلى الجهل ، إذ تكتسب المعرفة بطريقة انتقائية، أى أن الفرد يعرض نفسه للمعلومات التى يحب التعرض لها ، ويتجنب التعرض لمعلومات لا يرغب فيها، فيؤدى الرفض إلى التجنب الذى يؤدى بدوره إلى الجهل، فتصبح معلومات الفرد عن الآخر محدودة، وبالتالى يعتمد فى الحكم عليه على مضمون انفعالى تقويمى فقط ، والذى يكون سلبيًّا فى أغلب الأحيان ؛ وذلك لغياب المضمون المعلوماتى الموضوعى (Rejecki, 1990: 293). وهذا ما أدى إلى عصور الجمود فى المجتمعات الإسلامية؛ إذ أدت الخلافات الفقهية إلى انحياز مذهبى ، أصبح بمقتضاه يجتهد المجتهد فى دائرة مذهبه فقط ، متقيداً بأصول المذهب وآراء إمامه ، مبتعداً عن أصول المذاهب الأخرى وآراء أئمتها ، فانتهى الأمر إلى الجمود (محمد أبو زهرة، ١٩٨٩: ٢٨١) وما نتج عنه من تخلف الأمة الإسلامية فى كافة مجالات الحياة .

٢ - شيوع أنماط سلوكية شاذة فى المجتمع :

يضعف الخلاف الشديد (أو الشقاق) الأواصر الاجتماعية نتيجة غياب العلاقات الإيجابية المتبادلة بين الأفراد ، ويترتب على ذلك غياب الضبط الاجتماعى للسلوك ، ويعد هذا الغياب العامل الأول وراء شيوع أنماط سلوكية شاذة وغير مقبولة ، مثل :

أ - الاعتماد على المسكرات والمخدرات ؛ إذ يعد غياب الضبط الاجتماعى أهم شرط بين شروط ثلاثة - بالإضافة إلى دافعية التعاطى وكون المادة المتعاطاة متاحة وفى متناول الفرد - يؤدى تفاعلها معاً إلى ارتفاع معدلات التعاطى لكل أنواع المسكرات والمخدرات(*) فى بلدان العالم كله .

ب - اضطرابات السلوك الجنسى ،

(*) وقد تبين الأمر نفسه ، وبدرجة شديدة الوضوح ، بالنسبة لتدخين السجائر ، فغياب الضبط الاجتماعى لهذا السلوك هو المسئول الأول لزيادة معدلات التدخين (انظر : عبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٢ : ٤٢ ، ٦٥ ، ١٤٢) .

إذ يعد غياب الضبط الاجتماعى للعلاقات الجنسية ، بالإضافة إلى الحافز الجنسى وكون النوع الآخر متاحاً أيضاً هى العوامل المسئولة عن شيوع هذه الاضطرابات فى المجتمعات التى تضعف فيها الأواصر الاجتماعية .

جـ - الاضطرابات النفسية والأمراض النفسجسمية ، حيث تكشف البحوث أن معدل الشكوى من هذه الاضطرابات يزيد بشكل واضح إذا كان الأفراد يعايشون ظروفاً اجتماعية سلبية، كالتفكك الأسرى والصراع وشيوع الخلافات بين هؤلاء الأفراد (انظر الفصول : ٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ من Al - Issa, 1982) .

د - زيادة معدل جنوح الأحداث وارتكاب الجرائم ، فالبحوث تبين أن شيوع الخلافات بين أفراد الأسرة وخصوصاً الوالدين - تزيد معدلات جنوح أطفالها ، وتيسر تورطهم فى إصدار سلوك غير مقبول اجتماعياً (Lewis, et al, 1989) كما تؤكد البحوث أيضاً أن ضعف أواصر التضامن الاجتماعى يؤدى إلى غياب الإدانة الشعبية للجريمة(*) مما يشجع الأفراد الذين لديهم استعدادات إجرامية على ارتكاب الجرائم وتيسر لهم ذلك (Willson , 1975: 26, 80).

مما سبق يتبين أن تحول الخلاف المحدود إلى شقاق يؤدى إلى شيوع أنماط سلوكية شاذة ولا توافقية ، مما يهدد المجتمع وبقاءه .

٣ - التعصب Prejudice :

هو اتجاه attitude يجعل صاحبه يفكر ويشعر ويسلك بطرق مفضلة أو مستهجنة ، نحو أو ضد جماعة معينة أو أحد أعضائها (Secord & Backman 1974 : 145) ، أى أن التعصب قد يكون إيجابياً ، أى التمسك بموقف - فكرة - ملائم ورفض موقف آخر غير ملائم ، وهذا أمر مستحسن تماماً ومستحب ، وقد يكون التعصب سلبيًا ، أى رفض موقف - فكرة - ملائم ، وتقبل موقف آخر غير ملائم والالتزام به. والنوع الأخير (أى التعصب السلبى) هو المقصود هنا كنتاج لتحول الخلاف المحدود إلى شقاق وكمقدمة لهذا التحول أيضاً ، ويتمثل هذا التعصب فى إصدار

(*) وقد أشار ابن خلدون - فى مقدمته ص ٢٧٤ - إلى أثر ضعف الضبط الاجتماعى فى شيوع الجريمة -حينما ربط بين جرائم معينة ومجتمع السوق وجرائم أخرى ومجتمع المدينة .. وهكذا .

الفرد حكماً متسرعاً ومبالغاً فيه على فرد آخر - جماعة - موضع الحكم ، وتكون هذا المبالغة مصحوبة بتفكير منمط يجعل الفرد يرفض تعديل حكمه هذا فى ضوء أدلة جديدة ، ويستحث هذا الحكم صاحبه لإصدار فعل مباشر ضد الأخر - الجماعة - موضوع الحكم أو ضد ممتلكاته ، يتفاوت هذا الفعل بين التعليق اللفظى (التوبيخ أو إطلاق النكات مثلاً) والاعتداء عليه بالضرب أو القتل أو نهب ممتلكاته أو تدميرها (Harding, et al, 1969) ، وهكذا يؤدى تفاوت الأفراد فى القدرات العقلية، بما فى ذلك تفاوت القدرة عل تقدير الموقف ، واختلاف الأفراد فى المكانة أو العقيدة أو اللون .. الخ ، ويخلق هذا التفاوت والاختلاف مواقف يتنافس فيها الأفراد ، مما يترتب عليه إخفاق بعضهم وإحباطهم ، وتكون نتيجة ذلك البغض المتبادل والتشاحن والتحيز الذى يتم التعبير عنه بصور نمطية(*)

Rajecki, (1990 : 265).

وتختلف أشكال التعصب بتباين الإطار الاجتماعى الثقافى الذى يحدد الصراع بين الأفراد والجماعات وتنافسهم على العمل أو المكانة الاجتماعية (Brown, 1986: 543) ؛ لذا يشيع التعصب الدينى فى لبنان والهند والبوسنة على سبيل المثال ، ويشيع التعصب العرقى (العنصرى) ethnic فى الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا ودول أوربا ، ويشيع التعصب الإقليمى ، أى تعصب أهل الشمال ، وكذلك سكان المدن ضد أهل الجنوب وسكان الريف أو العكس ، يشيع هذا الشكل للتعصب فى مصر والولايات المتحدة على سبيل المثال أيضاً ، وكان هذا الشكل شائعاً فى بلاد العرب قبل الإسلام ، حيث كان الفرد ينصر قبيلته ظالمة أو مظلومة، وقد كان أول سلوك تعصبى فى تاريخ الخلق ، هو ما صدر عن «إبليس»-عليه اللعنة - حينما رفض السجود لآدم -عليه السلام- استكباراً بالمادة التى خلق منها ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ (ص : ٧٦ ، انظر كذلك الأعراف : ١٢ ، الحجر : ٣٣) (الشهرستانى ، ١٩٦٨ : ١٤) ، هنا

(*) الصورة النمطية Stereotype صورة شديدة التبسيط لفرد ما أو جماعة ، لاتستند إلى دليل يؤيدها ، ولا تقبل التعديل إذا ظهر دليل يعارضها ، وقد تكونت هذه الصورة قبل التفاعل المباشر مع من تكونت عنه ، وتوجه هذا التفاعل ولا تتأثر بنتائجه .

سوغ إبليس سلوكه بأصل العنصر الذى خلق منه ، عادًّا النار أشرف من الطين، استناداً إلى قياس فاسد ـ وهو أول من استخدم القياس كدليل ـ لأن من شأن الطين الرزانة والحلم والأناة والتثبيت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، بينما النار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، وهكذا أبلس إبليس ، أى يئس من رحمة الله ، بينما تاب آدم وغفر له الله فنفعه عنصره (ابن كثير ، ١٩٨٠ ، ٣ : ١٤٩) ، وهكذا نجد تبريراً للتعصب بصور نمطية مبسطة ومبتسرة ، فيأتى التبرير فى غير محله ، فالتعصب السلبي اتجاه برفض فرد آخر ـ جماعة ـ لإختلافه عنا فى السلالة أو الدين أو الموطن أو النوع أو الإطار الفكرى (الإيديولوجى) أو المذهب الفقهى أو العمر أو المكانة الاجتماعية أو ... الخ. ولهذا التعصب آثار غير مرغوبة منها:

أ ـ عدم السماح بالمخالطة الاجتماعية فى الأماكن العامة ، وما يترتب على ذلك من خسارة مؤازرة الآخرين ومساندتهم فى مواقف تتطلب هذه المساندة .

ب ـ عدم الامتزاج الدموى ـ رغم وحدة العقيدة أو الوطن ـ بعدم المصاهرة، مما يضعف آواصر المجتمع ويعمل على تفككه .

ج ـ نشر فكاهات تنال المستهدف بالتعصب(*) وتضخم عيوبه ،مما يزيد الفجوة بين فئات المجتمع ويفجر مشاعر العداء (عبد الحميد الهاشمى ، ١٩٨٩ : ١٣٣) .

د ـ الاعتداء عليه ـ أى المستهدف بالتعصب ـ سواء كان هذا الاعتداء اعتداء انفعاليًّا يتمثل فى تجاهله أو بخس ما يقدمه من فكر وعمل ، أو كان إعتداء مباشراً يأخذ شكلاً لفظياً أحياناً كالسب ، أو يأخذ شكلاً بدنيًّا فى أغلب الأوقات كالضرب والقتل ، وما نار الحروب بين فئات الأمة الواحدة إلا تعصب أعمى ، وأى خلاف ـ مهما كان موضوعه ـ يمكن أن يظل محدوداً ، ويمكن أيضاً أن تزداد حدته فيصبح تعصباً ، حتى الخلاف الفقهى ـ أى الإختلاف فى فهم نص دينى ـ يكون كذلك ، وقد أكد محمد الغزالى

(*) كما يحدث فى مصر ؛ إذ ينشر سكان المدن وكذلك الشمال فكاهات (نكات) ضد سكان الريف والجنوب (الصعايدة) . ويحدث الأمر ذاته ضد الزنوج فى أمريكا .

((١٩٨١ : ٩٨) أنه رأى من أمراض التعصب المذهبي بين فئات الأمة الإسلامية ما يثير الإشمئزاز ، ويدعو إلى الدهشة ، وكأن الذين خاضوا المعارك الجدلية يقصدون قصداً إلى تمزيق المسلمين(*) وإهانة معارضيهم فى الفكر بعلل مختلفة ، مضيفاً «أن هذا التعصب بدد قوى الذين أنشأوا باكستان المسلمة» (محمد الغزالى ، ١٩٨١ : ١٠٣) ، وتشهد أفغانستان والجزائر - وغيرهما - الحال نفسه .

لكن هذه الأضرار الناتجة عن التعصب أو العصبية ، نهى عنها رسول الله قائلاً :«من ينصر قومه على غير الحق فهو كالبعير .. » واجتث بذور التعصب بين المهاجرين والأنصار قائلاً: «دعوها أى العصبية (فإنها منتنة » . «فليس منا من دعا إلى عصبية ، ليس منا من قاتل على عصبية ، ليس منا من مات على عصبية» (عن : أبى الحسن الندوى ، ١٩٧٣ : ١١٠) ، واصفاً عليه الصلاة والسلام أباذر - ذات مرة - قائلاً «إنك امرؤ فيك جاهلية » لأن أباذر سب أحد الرجال بالقول: «يا ابن السوداء» ، وخطب فى الناس قائلاً : «إن الرب واحد وإن الدين واحد وإن الأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم إنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى» وذلك لينهى العرب عن التعصب ضد الروم والحبش (عمر عودة الخطيب ، ١٩٨٣ : ١٢٧)، وأكد ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام :«لاتهلك أمتى حتى يكون بينهم التمايل والتمايز» ، وقوله الكريم «كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، «الناس سواسية كأسنان المشط » المرجع السابق : ١٥١) ، وأوصى المسلمين بالمحبة : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، «من نفس عن مؤمن كربه ، نفس الله عنه كربه من كرب يوم القيامة » ، «لاتحاسدوا ولاتناجشوا ولاتباغضوا ولاتدابروا ، ولا يبع أحدكم على بيع بعض ، وكونوا

(*) يؤدى إختلافنا فى الفكرة إلى تضاد فى أفعالنا ، حيث يسلم علم النفس المعاصر بأن السلوك معرفى المنشأ، أى أن الفرد يتصرف فى ضوء المعلومات المتاحة له وطبقاً لها (انظر : عبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٢ أ ٥٥: ١٩٩٢ب) . وتقدم كتب تاريخ الفرق الإسلامية الأدلة على ذلك ، فالخلاف فى البداية كان نزاعاً سياسياً حول أحقية الخلافة ، أفضى إلى خلاف دينى ، ظهر بعده التكفير ، أى أن الفرق الإسلامية تكفر بعضها بعضاً، ثم تحول هذا إلى شقاق احتماعى (لمعرفة هذا انظر : البغدادى ، ب ت : ١٠ - ١٢ ، الشهرستانى ، ١٩٦٨: ٢٠ - ٣٧ ن محمد أبو زهرة ، ١٩٨٩ : ١٧ - ١٨ ، محمد على أبو ريان ، ١٩٧٦ : ١٣٦ - ١٤٠) .

عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يحقره ولايخذله ... » .

وجاء هذا تفصيلاً لقول الله جل وعلا :﴿ **يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولاتلمزوا أنفسكم ، ولاتنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ، ولايغتب بعضكم بعضًا**﴾ (الحجرات :١١ - ١٢)، ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ، فلا تتناجوا بالإثم والعدوان**﴾ (المجادلة : ٩)، ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ (هود : ٨٥)، ﴿ **ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا**﴾ (الحشر : ١٠) .

والتعصب كاتجاه ، مثله مثل أى إتجاه ، يعد نسقاً من مكونات ثلاثة تتبادل التأثير (عبد المنعم شحاته ، ١٩٨٩) وهى :

أ ـ المكون المعرفى ، أو معلومات الفرد المتعصب عن الآخر موضوع التعصب ، وهى عبارة عن أحكام باتسام هذا الآخر بصفات معينة ، مصدر هذه الأحكام معتقدات beleifes مفرطة فى بساطتها ومبالغ فى تعميمها ، مثال لهذه المعتقدات: اعتقاد البيض فى المجتمع الأمريكى أن الزنوج كسالى وأدنى من الناحية العضوية التشريحية ويميلون بطبعهم للاستعباد ، مثال آخر لهذه المعتقدات ، ما يتبادله سكان المدن والريف فى مصر من أحكام باتسام كل منهم بصفات ليست فيه ، مثال ثالث: ما يتبادله أفراد الفرق الإسلامية على مر تاريخها من أحكام تصل إلى تكفير بعضهم بعضاً ، وتمتد هذه الأحكام إلى نياتهم ومقاصدهم، وتقدم هذه المعتقدات التبرير للسلوك التعصبى أو التمييز (بين أبيض وأسود، أو حضرى وريفى ، أو سنى وشيعى ... وهكذا) .

ب ـ المكون الوجدانى أو مشاعر البغض والكراهية والاستهجان .. والتى يكنها المتعصب للآخر موضوع التعصب، وتتسق هذه المشاعر مع الأحكام أو المعارف أو المعلومات فوجهتهما سلبية دائماً .

جـ ـ المقاصد السلوكية intenti-ons، وتتمثل فى الميل للتمييز discrim-

ination ، فبعد تصنيف الآخر ضمن الجماعة الخارجية (التى لا ينتمى إليها صاحب الاتجاه التعصبى) بناء على إدراك اختلاف الآخر (فى اللون أو العقيدة أو الفرقة أو المذهب أو الحزب السياسى ... إلخ) عن الفرد المتعصب ، يتم خلع صورة نمطية على أى فرد يدرك المتعصب أنه ينتمى لتلك الجماعة الخارجية ، وهى صورة مكونة من صفات مبالغ فى تبسيطها ، وفى اتسام أعضاء الجماعة الخارجية بها ، ومن خلال ذلك يصبح هؤلاء الآخرون هدفاً لتفريغ الشحنات الانفعالية السلبية التى تكونت لدى المتعصب وترسخت ضد تلك الجماعة الخارجية ، ويترتب على كل هذا تعبيرات متفاوتة الشدة عن رفض هذه الجماعة ومعارضة أعضائها فى أفكارهم وآرائهم من خلال إصدار استجابات يتم بموجبها التمييز بين أفراد الجماعة الداخلية (التى ينتمى إليها المتعصب) وأفراد الجماعة الخارجية (التى لاينتمى إليها) ، ويكون التحيز للأولى ولأعضائها ضد الأخيرة وأعضائها أيضاً .

ومن النادر أن يكون سلوك التمييز أو التحيز مباشراً ، فغالباً ما يعبر المتعصب عن اتجاهاته التعصبية تعبيرًا غير مباشر ، ففى دراسة تقارن بين مقابلة صاحب عمل أبيض لمرشحين لوظيفة لديه من البيض والسود ، تبين أن المسافة الفاصلة بين صاحب العمل الأبيض والمرشح الأسود كانت ٦٩,٢٩بوصة ، ومدة مقابلتهما كانت ٩,٤٢دقيقة ، معدل أخطاء حديث صاحب العمل معه (أى المرشح الأسود) فى الدقيقة الواحدة هو ٣،٥٤خطأ ، وفى المقابل كانت المسافة الفاصلة بين صاحب العمل الأبيض والمرشح الأبيض ٥٨,٤٣ بوصة ، ومدة مقابلتهما ١٢.٧٧ دقيقة، ومعدل أخطاء الحديث فى الدقيقة الواحدة ٢,٣٧ خطأ ، أى أنه حينما كان المرشح أبيض كانت المسافة أقصر واللقاء أطول ومعدل أخطاء الحديث أقل، مما يعنى أنه أكثر قرباً لصاحب العمل الأبيض ، وأنه أقل إثارة للتوتر الناتج عن الصراع بين السلوك الممارس والمعتقدات غير المعلنة لاتساقهما إن لم يكن تطابقهما ، بينما كان الأمر عكس ذلك بالنسبة للمرشح الأسود (Rajecki, 1990 : 287) .

واختيار الفرد للتعبير المباشر أو غير المباشر عن اتجاهاته التعصبية يعتمد على

عدة عوامل ، منها ما يلى :

أ ـ خصائص هذه الاتجاهات مثل : رسوخها ، فكلما كان الاتجاه التعصبى راسخاً ، كان التعبير عنه مباشراً ، ومثل: هيمنة centrality أحد مكونات الاتجاه التعصبى ، خصوصاً المكون الوجدانى وهذه الهيمنة لا تجعل التعبير عن الاتجاه التعصبى مباشراً فحسب ، وإنما تزيد أيضاً من مقاومة هذا الاتجاه للتغيير والتعديل . ومثل : تطرف extremecity الاتجاه ، فكلما زاد تطرفه ، زادت أيضاً شدته ، وزادت بالتالى احتمالات التعبير المباشر عنه .

ب ـ السياق الاجتماعى الذى يسمح بترسيخ الإتجاهات التعصبية أو يسهم فى إنقاص شدتها ، وذلك من خلال مدى ما يسمح به هذا السياق من اتصال بين أفراد الجماعات العرقية (أو الدينية ، أو المذهبية ... إلخ) المختلفة ، من خلال ما يمارسه هذا السياق أيضاً من ضبط اجتماعى بواسطة العرف والقيم والتقاليد ، هذا الضبط الذى إما يسهم فى زيادة السلوك التمييزى ، وإما يكبح هذا السلوك ، كما حدث فى بلاد العرب قبل الإسلام وبعده ، فقد كان الضبط الاجتماعى وراء العصبية القبلية قبل الإسلام ، وكان أيضاً وراء غيابها بعد الإسلام .

جـ ـ التغيرات الاقتصادية ، فهى أيضاً قد تزيد احتمالات إصدار الفرد لسلوك تمييزى بين أفراد جماعات المجتمع وفئاته ، وقد تقلل هذه الاحتمالات . فعلى سبيل المثال : أدت هذه التغيرات الاقتصادية إلى تضاؤل الاتجاهات التعصبية ضد الأسيويين فى المجتمع الأمريكى (المرجع السابق : ٨٤ ـ ٨٥) كما أن هذه التغيرات أيضاً وراء غياب المعاداة للسامية فى أوربا ، كما أنها وراء تضاؤل الأفعال التمييزية ضد اليهود فى المنطقة العربية فى الآونة الأخيرة كذلك .

د ـ التغيرات السياسية وما يصاحبها من عدم استقرار الأنساق القيمية الموجهة للعلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع ، وما ينتج عن ذلك من صراع بين فئاته وتنافسها على تأكيد المكانة ، فيزيد إحساس أفراد بعض هذه الفئات بالتهديد ، وتزيد بالتالى كل من الاتجاهات التعصبية والاستجابات التمييزية .

هـ ـ تعرض المجتمع للخطر نتيجة حروب أو كوارث ، ففى مواجهة

الخطر يميل الأفراد لتأكيد وحدتهم كمجتمع من خلال إظهار المزيد من التعصب ضد أفراد الأقليات .

و ـ خصال الأفراد وسماتهم ، فالذين يتسمون بالتوتر المرتفع وعدم تحمل الغموض والتصلب والميل لمسايرة الآخرين والميل للصرامة وانخفاض المستوى التعليمى ، أكثر تعصباً ، وميلاً للتعبير المباشر عن اتجاهاتهم التعصبية بالمقارنة بأفراد آخرين يتسمون بالإسترخاء والقدرة على تحمل الغموض والمرونة والاستقلالية والتسامح وارتفاع مستوى التعليم .

هذه بعض العوامل التى تزيد الاتجاهات التعصبية رسوخاً وشدة وتطرفاً ، وتزيد بالتالى احتمالات اللجوء إلى تعبير مباشر عنها . ومما سبق تتضح خطورة التعصب على المجتمع ؛ إذ يعمل على تفكيكه إلى فئات(*) ، ويعمق تبايناتها ويرجح تبادلها العداوة والإقتتال.

ثالثاً : العوامل التى تؤدى إلى تحول الخلاف المحدود والمقبول إلى شقاق :

هناك عوامل عدة تسهم فى زيادة حدة الخلاف بين المسلمين ـ أو فئات أى مجتمع ـ وتحوله إلى شقاق ، ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى فئتين كما يلى :

أ ـ عوامل مستنبطة من تاريخ الخلافات بين المسلمين .

ب ـ عوامل مستمدة من بحوث علم النفس المعاصر .

أ ـ من العوامل التى يرجح مؤرخو خلافات المسلمين ، أنها وراء زيادة هذه الخلافات عمقاً ما يلى :

١ ـ العصبية القبلية التى كانت سائدة بين العرب قبل الإسلام ، واختفت فى عصر النبى ، وعادت للظهور فى عهد الخليفة عثمان بن عفان وبعده ، فظهر الخلاف بين الأمويين والهاشميين ، وبين القبائل الربعية (التى شاع بين أفرادها مذهب الخوارج) والقبائل المضرية .

٢ ـ التنازع على الخلافة(**) ،

(*) فقد كان التعصب المتبادل بين اليمنيين (عرب الجنوب) والمضريين (عرب الشمال) وراء سقوط حكم بنى أمية ، وكان التعصب أيضاً وراء انقسام الأمة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى ، وكان ذلك وراء غياب الخلافة وتفتيت الأمة الإسلامية إلى دويلات فى القرنين الأخيرين . .

(**) يرادفها في هذه الأيام الصراع على السلطة ، ففى كل أنحاء العالم تشتعل حروب بين فئات المجتمع الواحد، أو يتم إخماد حروب لأهداف انتخابية ، أى للحفاظ على السلطة من قبل القائمين عليها ، وتقدم أفغانستان المثل على ذلك، ولا يقتصر الأمر على الصراع داخل الدولة الواحدة ، بل قد يؤثر صراع السلطة فى دولة ما على أحوال دولة أخرى ويعكس حال الحرب فى البوسنة والشيشان والوضع فى فلسطين ... وغيرهم ، عامى ٩٥ / ١٩٩٦ مدى تأثير الانتخابات الأمريكية فى دول العالم .

كالذى بدا وحسم فوراً بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكالذى بدا واستمر بين الأموين والهاشميين أو بين الشيعة والخوارج ، أو بين غيرهما .

٣ ـ ظهور القصص فى عهد عثمان، وما ترتب على ذلك من شيوع خرافات السابقين وأساطيرهم ، وتحريفات أهل الديانات السابقة ، خصوصًا الإسرائيليات .

٤ ـ ترجمة الفلسفة ، وشيوع طريقتها فى التفكير عند تناول موضوع دينى ، كما فعل المعتزلة (محمد أبو زهرة، ١٩٨٩ : ١٢ ـ ١٦) .

٥ ـ التأثر بعقائد أخرى ، كما حدث فى صدر الإسلام ، حينما آثار المسلمون الجدد الخلافات ، متأثرين بما تنطوى عليه نفوسهم من عقائد (يهودية ـ مسيحية ـ مجوسية .. إلخ) كانوا يؤمنون بها قبل إسلامهم ، وأدى ما أثاروه من قضايا وإشكالات إلى ظهور صور من النزاع كانت سببًا فى التفرق (محمد على أبو ريان ، ١٩٧٦ : ١١٦).

٦ ـ الثورة الثقافية المضادة من قبل الشعوب التى تم فتح بلادها ، فهذه الثورة أدت إلى زيادة هوة الخلافات بين المسلمين ، بل ساهمت فى نقل هذه الخلافات من مستوى الفروع إلى مستوى الأصول (المرجع السابق : ١٣٧) .

٧ ـ اشتمال القرآن الكريم على آيات محكمات وأخرى متشابهات ، وتضمُّن الشريعة الإسلامية أحكامًا منصوصاً عليها وتعد قطعية صريحة ، وأخرى مسكوتاً عنها أو ظنية أو تقبل الاجتهاد ، مما أدى إلى اختلاف الفهم والتأويل ؛ لتفاوت قدرة العقول على الإدراك والاستدلال (يوسف القرضاوى، ١٩٩٠ : ٤١) ، وهذا الاختلاف مشروع ومقبول إلا أنه تحول إلى شقاق نتيجة تدخل الحكومات والشعوبيين وغيرهما .

٨ ـ أن النصوص ـ القرآن الكريم والسنة المطهرة ـ قولية لفظية ،فيها الحقيقة والمجاز ، وعرضة لاختلاف الدلالات ، مما أوجد مجالاً لتباين الأفكار وتعارضها (هناك أمثلة عديدة لهذه الاختلافات وتداعياتها فى المرجع السابق : ٤٣ ، القرافى ، ب ت : مواضع متفرقة ، محمد أبوزهرة ١٩٨٩: ٢٥٣) .

٩ ـ اختلاف روايات الأحاديث ،

وكونها صحيحة عند بعضهم فأخذ بها، وعدم صحة هذه الرواية عند بعضهم فلم يأخذ بها ، مما أدى إلى تعدد المذاهب والأحكام الفقهية (محمد أبو زهرة ، ١٩٨٩ : ٢٥٣) .

١٠ ـ سوء النية ؛ إذ لم تكن الخلافات بين المسلمين تهدف إلى معرفة الحق ، بقدر ما هى استجابة لدوافع أخرى كالسيطرة على الحكم أو نتيجة الكبرياء أو الاستعلاء ، ونتذكر أن الخلاف بين إبليس وآدم كان مصدره استعلاء إبليس (الشهرستانى، ١٩٦٨ : ١٤) ، وأن الخلاف بين ولدى آدم «هابيل وقابيل» كان مصدره الغيرة **﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك﴾** (المائدة : ٢٧) ، وقياساً على ذلك يمكن إرجاع الخلافات الحادة بين فئات المسلمين إلى دوافع عديدة ليس من بينها معرفة الحق واتباعه .

١١ ـ تدخل الحكومات ، وكذلك الأجانب(*) ، وتنافس الفئات المتخالفة فى جعل الدولة ـ أو القوة الأجنبية ـ إلى جانبها . وقد نهى الله العلى الجبار عن ذلك بقوله: **﴿ والفتنة أشد من القتل﴾** (البقرة : ١٩١) ، **﴿ والفتنة أكبر من القتل﴾** (البقرة : ٢١٧) ، وما روى عن رسول الله «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» ، ولم يكتف الله سبحانه وتعالى بالنهى عن ذلك التدخل فقط ، بل نهى المتخالفين عن الاستجابة له **﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾** (المائدة : ٤١) ، **﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾** (الممتحنة : ١) ، والسمع من درجات الموالاة ، ليس هذا فحسب ، بل طالبهم المولى عز وجل بتحرى الدقة والصدق فيما يصلهم من أنباء ينقلها إليهم من لا يوثق بدينه أو أمانته **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾** (الحجرات : ٦) .

ومثال لتدخل الحكومات ، وما فعله الأمويون لإذكاء نار التعصب بهدف مساندة العرب ضد معارضى الداخل (عباسيين وعلويين وخوارج) والأعداء البيزنطيين (إحسان النص ، ١٩٧٣ : ٢٧٤) ، وكذلك فعل الأمر ذاته

(*) تدور أحاديث كثيرة حول الدور الأمريكى الإسرائيلى فى النزاع اليمنى الإريترى حول جزر حنيش ، والذى اشتعل أواخر عام ١٩٩٥ وأوائل عام ١٩٩٦ .

العباسيون والعثمانيون والحكومات الإسلامية المعاصرة ، كما حدث فى عهد الرئيس السادات (١٩٧٠ - ١٩٨١) فى مصر ، حينما تدخلت الحكومة المصرية فى الصراع بين الإسلاميين والاشتراكيين .

أما تدخل الأجانب ، فالأمثلة عليه عديدة نذكر منها ، ما قام الفرنسيون به لتشجيع محمد على كى يستقل عن الخلافة (محمد قطب ، ١٩٨٢- ١٢٧) ، ومحاولات الاستعمار الصليبى العديدة لتفتيت الأمة الإسلامية وهدم قيم الوحدة لديها (المرجع السابق : ١٢٢ - ١٨٣) ، وتقدم الجزائر وفلسطين وأفغانستان فى الأعوام الأخيرة أمثلة حية لتدخل الأجانب فى الصراع بين فئات الشعب الواحد ، وآخر الأمثلة ما حدث بعد الانتخابات التركية التى أجريت يوم ٢٤/ ١٢ / ١٩٩٥ ، وما تلاها من تحرك القبارصة والأرمن واليونانيين بإيعاز من الدول الغربية (أوربا وأمريكا) لمنع حزب الرفاة من السيطرة على السلطة .

١٢ - فصل الدين عن الدولة ، أو العلم عن الحكم ، وما ترتب على ذلك من ظهور فرق ذات توجهات سياسية مختلفة ، كان لها الأثر الشديد فى زيادة هوة الخلاف بين المسلمين وتعميقه أمثلة لذلك انظر : أبا الحسن الندوى ، ١٩٧٣ : ٢١٦ - ٢٢٠ ، طه جابر العلوانى ، ١٩٨٤ : ٧٨ - ٧٩ ، ١٥٢ - ١٥٥ ، محمد الغزالى ، ١٩٨١ : ١٠٠ - ١٠١ ، ١٢٥ - ١٢٧) .

ويبين تاريخ الخلافات بين المسلمين أن بدايتها كان خلافاً سياسياً ، أدى إلى خلاف فقهى ، ثم انتهى إلى خلاف عقائدى متعصب (محمد أبو زهرة ، ١٩٨٩ : ١٩) ، ويعتقد بعض المفكرين أن الخلاف - الذى ظهر خصوصاً فى عصور ما بعد الخلافة الراشدة - خلاف شاذ ، ومصدر شذوذه هو قلب الأمر ، فالأصل أن يكون الفكر مقدمة والخلاف نتيجة . فلا تثريب على الذين بدأوا مفكرين أن ينتهوا مختلفين ، ولكن الطامة الكبرى عندما يكون الخلاف مقدمة والفكر نتيجة ، عندئذ تكون الفكرة ثمرة الخلاف ، ومجرد ذريعة له ، وهكذا ظهر مذهب الجبرية وشجعه الأمويون كى يبرروا اغتصاب الخلافة ، كما يقدم فكر الخوارج تبريراً لموقفهم المسبق من الخلافة ، وكذلك غيرهم من فرق المسلمين (الدمرداش ذكى العقال ،

١٩٩٢) .

ب ـ عوامل مستمدة من بحوث علم النفس المعاصر :

وتسهم العوامل المشار إليها ـ سابقًا ـ فى تحول الخلاف المحدود المقبول إلى شقاق مذموم وتعصب ممقوت ، من خلال عمليات نفسية تتوسط بين هذه العوامل ونتائجها من شقاق وتعصب ، وبمعنى آخر : فإن تأثير العوامل السابقة يتوقف على هذه العمليات النفسية والتى نعرض لبعض منها كما يلى :

١ ـ تكوين الجماعة والانشقاق عليها :

لدى الإنسان ميل فطرى للدخول فى علاقات اجتماعية متبادلة مع غيره من البشر ؛ وذلك لحاجته إلى تقويم نفسه من خلال مقارنتها بالآخرين ؛ لذا نجده مدفوعاً بفطرته للارتباط بهم ، أى للإنتماء إلى جماعة . وهكذا يختار من بين جماعات المجتمع الموجودة ـ ويتم هذا الاختيار عبر كل الثقافات البشرية ـ إحداها لينجذب إليها على أساس أقصى درجة من الإحساس بالرضا تحققها له الجماعة نتيجة تبنيها لآراء قريبة من آرائه، فيميل للإنضمام إليها ـ وكذلك يفعل غيره ـ ويميل فى الوقت نفسه لتحاشى عضوية الجماعة التى تختلف أراؤها عن آرائه (Fiske, 1992).

وهكذا تتكون الجماعة وتنمو نتيجة تكامل أعضائها وسعيهم نحو إيجاد حلول للمشاكل التى تواجه تكوين جماعتهم واستمرارها ، ويتم هذا التكوين والنمو عبر مراحل ثلاث :

أ ـ مرحلة تكوين الجماعة ، حيث تؤدى الحاجة المتبادلة للارتباط والحب إلى تكوين علاقات انفعالية بين الأعضاء، يتم التعبير عنها إما بشكل إيجابى (يتدرج من الانجذاب إلى الحب) ويحقق الرضا الناتج عن العضوية فى الجماعة فتشكل هذه العضوية قيمة للفرد وتدفعه إلى الالتزام بما تفرضه عليه هذه العضوية .وإما أن يكون التعبير عن العلاقات الانفعالية سلبيًّا (يتدرج من الاستهجان إلى الثورة بغرض تغيير معايير الجماعة) وتنتج عنه مشاعر عدم الانتماء للجماعة والانشقاق عليها . وهكذا يتفاوت سلوك أعضاء الجماعة بين التفاعل المكثف وتكاتف جهود الجميع مما يزيد الجماعة تماسكاً ويضمن استمرارايتها وبين الانسحاب الكامل من

الجماعة(*) لأن عضويتها لا تحقق الرضا المنشود ، مما يؤدى إلى تفكيكها وانشقاقها إلى جماعات فرعية متصارعة.

ب - مرحلة استقرار الجماعة ، حيث تتجه جهود أعضائها المتواجدين فيها - وتمثل عضويتها قيمة لهم - إلى عمليات اتخاذ القرار بشأن استمرار الجماعة متماسكة قوية قادرة على تحقيق أهدافها، هنا تظهر الخلافات بين الأعضاء بشأن توزيع مسئوليات الجماعة ومصادر القوة والتحكم فيها ، ويسعى كل عضو منهم لشغل المكانة الأعلى وموقع المسئولية الذى يعطيه قدرة تحكم أعلى فى الجماعة .

جـ - مرحلة تفكك الجماعة ، حيث تتطور الخلافات السابقة بشأن المسئوليات والتنافس على المواقع إلى مستوى الصراع ، حيث يسعى كل عضو إلى ترسيخ موقعه فى الجماعة ، مما يجعل ظهور انفعالات الغضب والعداء والتعبير عنها أمرًا شائعاً بين الأعضاء، ويصعب تجنب ذلك ، مما يؤدى إلى ظهور الجماعات المنشقة (Shaw & Costanzo, 1982 : 360 - 365)

وتزيد احتمالات ظهور هذه الجماعات المنشقة فى حالة :

(١) أن يكون لدى الجماعة نسق اعتقادى أو قيمى قوى ؛ إذ يقدم هذا النسق للأعضاء بدائل سلوكية عديدة للموقف الواحد يمكنهم المفاضلة بينها واختيار أحدها ، ويعكس اختيار العضو أحد هذه البدائل درجة التزامه بمعايير الجماعة ومدى ارتفاع ، أى قوة ، هذا الالتزام أو انخفاضه أى ضعفه ، وهكذا يحدث التمايز بين الأفراد ، ففى دراسة عن تطرف الاستجابة فى المواقف الاجتماعية ، أمكن التمييز بين مواقف ترتبط الاستجابة فيها بنسق إعتقادى أو قيمى معين ، وبالتالى تتباين الاستجابات بتمايز كل من : أنساق الاعتقاد أو القيم ودرجة التزام الأفراد بها . وبين مواقف لا ترتبط الاستجابة فيها بتلك الأنساق وبالتالى لم تتمايز استجابات الأفراد فيها بل تشابهت ، معنى هذا أن وجود نسق اعتقادى أو قيمى قوى يؤدى إلى تمايز استجابات الأفراد وتفاوت شدتها

(*) تلعب سمات الشخصية دوراً أساسيًا فى إستمرارية عضوية الفرد فى جماعة ما أو انسحابه منها فالمنبسطون أكثر اهتماماً بعضوية الجماعة ، ومرتفعوا العصابية يواجهون صعوبات فى سلوكهم الاجتماعى ناتجة عن تقلبهم الانفعالى ، والذهانيون يميلون للانسحاب من العلاقات الاجتماعية المتبادلة (بما فيها عضوية جماعة ما) وذلك لأن توجهاتهم نحو الآخرين يغلب عليها الشك والعداء (Wilson, 1981) .

(محمد حسن عبد الله وعبد المنعم شحاتة ، ١٩٩١) مما يفتح مجالاً للخلاف والتفرق .

(٢) أن يكون أعضاء الجماعة شديدى الاهتمام بأهدافها ونشاطها ، فكلما زاد هذا الاهتمام أدى فشل الجماعة فى تحقيق أهدافها إلى درجة كبيرة - لا يمكن تحملها - من الإحباط لأعضائها ، مما يدفعهم - كرد فعل - إلى الانشقاق عن الجماعة وتكوين جماعة أخرى أكثر قدرة على تحقيق الأهداف من الجماعة الأولى (Shaw & Costanzo1982 :367) .

(٣) أن تكون هناك صعوبة فى تبادل المعلومات داخل الجماعة ، ذلك إما لتعقد شبكة التخاطب (الاتصال) مما يوجد عقبات - تتمثل فى تعدد الوسائط - تمنع تدفق المعلومات داخل الجماعة ، وإما لأن هذا الاتصال فى اتجاه واحد - من القائد للأتباع دون العكس - وإما لوجود قيود تجعل الاتصال مصدر تهديد مما يخلق فرصاً كبيرة لكل من : تشويه المعلومات وسوء الفهم وتبادل العداوة بين الأعضاء وكل هذا يرجح الانشقاق عن الجماعة .

وهكذا يعد الانشقاق عن الجماعة أمرا عاديًّا ومتوقعًا ولايمثل مشكلة كبيرة طالما تتسق الأهداف العامة للجماعات المنشقة مع أهداف الجماعة التى انشقوا عليها ، مما يعنى أن جهودهم جميعاً ستتلاقى، ويسهل تحقيق الاعتماد المتبادل والمشاركة . أما إذا تعارضت هذه الأهداف ، فإن ذلك يؤدى إلى تصادم الجهود والتفرغ للصراع والمعارك الجانبية، مما يضعف الجميع ويصرفهم عن تحقيق أهدافهم ويخلق المزيد من التعارض والتنافس والإحباط ، ومن السهل جدًّا خلق تعارض الأهداف بين الجماعات المختلفة ، وبإمكان أى صاحب مصلحة- كالحكومات والقوى الأجنبية - إحداث هذا التعارض ، وتاريخ الجماعات الإسلامية يظهر ذلك بوضوح.

٢ - التأثير الاجتماعى :

إذ تمارس الجماعة التى ينتمى إليها الفرد ضغوطاً معينة تؤثر فى سلوكه ومعتقداته عن أعضاء الجماعات الأخرى وإتجاهاته نحوهم ، بهدف إحداث تغيير فى هذا السلوك وإحداث تعديل فى تلك المعتقدات والاتجاهات . ويختلف

التأثير الاجتماعى الناتج عن ضغوط الجماعة تبعاً لنمطها(*) وذلك على النحو التالى :

أ ـ إذا كانت الجماعة تعتمد فى تكوينها على مجرد إنتماء الأفراد إليها وعلى أساس أن السيادة للأرض ، وأن ملكيتها مشاع ، ويسمى نمط الجماعة «الشيوعى أو الاشتراكى؛ CommunalSharing(Fiske,1992) حيث يكون التأثير الاجتماعى ناتجاً عن ضغوط غير مباشرة يقوم بها أغلبية الأعضاء ، هنا ويميل الفرد لتغيير سلوكه استجابه لتلك الضغوط ، وحتى يصبح أكثر تشابهًا مع الأغلبية (عبد المنعم شحاته ، ١٩٨٨) ، وهذا التغيير يسمى المجاراة Conformity (أو المسايرة أو الاتباعية) ، حيث يكون سلوك الفرد تحت سيطرة معيار جماعى يتمثل فى الاتفاق على مبدأ ما يحتكم إليه الأفراد ، أى أن للأغلبية تأثيراً فى سلوك الفرد أو الأقلية(**) . ويكون هذا التأثير بهدف إبراز الهوية الاجتماعية للجماعة وتفرد معاييرها بالمقارنة بالجماعات الأخرى ، ولتيسير حركتها نحو تحقيق أهدافها وتجاوز العقبات التى تواجه هذا التحقيق ، ولتقليل احتمالات الانشقاق الناتج عن انحراف المخالفين لمعايير الجماعة :(Secord & Backman, 1974 : 305 . (; Fiske, 1992

ويستجيب الأفراد للضغوط التى تمارسها أغلبية الجماعة إما للحصول على معلومات مؤكدة عن موقف ما ينبغى التصرف فيه ؛ وذلك لأن معايير الجماعة مصدر مهم لهذه المعلومات ، وإما إشباعاً لحاجات لايتم إشباعها إلا من خلال تقبل الآخرين للفرد وحبهم وتقديرهم له (Latane & Wolf, 1981) ، وإما لتجنب الصراع والتنافر المعرفى الناتج عن مخالفة الفرد لمعايير الجماعة ، فيلتزم بهذه المعايير تجنباً للصراع النفسى الناتج عن مخالفتها (Billing, 1982 : 175) ، وإما لتحاشى أذى الأعضاء الآخرين فى الجماعة ، أو كما يقول ابن قيم

(*) كما تتفاوت استجابة الأفراد لهذا التأثير بتباين سمات شخصيتهم ، فعلى سبيل المثال ، يعد المنبسطون أكثر إستجابة للتأثير الاجتماعى بكافة صوره بالمقارنة بالمنطوين (Wilson, 1981).

(**) ولايكون هذا فى كل الأحوال ، فأحياناً ما يكون الفرد ـ أو الأقلية ـ نشطاً ، فيصدر سلوكاً معيناً ويصر عليه ويكرره ، فيمارس بذلك ضغوطاً على الأغلبية ويصبح مصدراً للتأثير فيها ، ويتوقف كون الأغلبية أو الأقلية مصدراً للتأثير فى الآخر على قوتها ومكانتها وعدد أعضائها ومدى لجوئها إلى السلوك المباشر (Latane & Wolf, 1981) .

الجوزيـــة: (١٩٧٥ : ١٩٣) «لابـد للإنسـان أن يعيش مـع النـاس ، وللناس إرادات وتصورات واعتقادات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، فإن لم يوافقهم آذوه».

ويمكـن التميـيز بـين المجـاراة «واللامجـاراة» Anticonformity فـي كـون الأخـيرة تشـير إلى إصدار الفرد سلوكاً ما في الاتجـاه المعاكس لتوقعات الجماعة المعيارية ، وتختلف اللامجاراة عن الاستقلال الـذى يشير إلى إصدار الفرد لسـلوكه بغض النظر عن توقعـات الجماعـة ، وإنما في ضوء معايير ذاتية للفرد توجه سلوكه (Shaw & Cost-anzo, 1982 : 459) .

ب ـ إذا كـانت الجماعـة تعتمـد فى تكوينهـا على أسـاس التـدرج الهرمى authority ranking حيـث يعد الفـرد الـذى يحتـل قمـة الهرم هـو الأكثر قوة وتحكمـاً فـى بقيـة الأعضـاء وتكون السـيادة فيهـا لهـذا الفـرد (Fiske, 1992)، وفى هذا الحـال ينتج التأثـير الاجتماعى عن ضغوط مباشرة يمارسها هذا الفرد (أو القـادة أو رجال السـلطة) لدفـع بقيـة أعضـاء الجماعـة إلى تغيير سـلوكهم ، ويقوم الأعضـاء بهذا التغيير كوسيلة لخفض الصراع بين مواقف كل منهم ومواقـف السـلطة ، وتسـمى هذه الاسـتجابة وهـذا التغيـير طاعـة obedi-ence (Billing, 1982 : 193).

جـ ـ إذا كانت الجماعـة تعتمد فى تكوينهـا على مبدأ المسـاواة بين الأعضاء فـى المكانـة والحقـوق والواجبـات أى equality matching ويكـون مصـدر التأثـير الاجتمـاعى رأى الأغلبيـة كمـا يعكسه التصويت وتسمى الاستجابة لهذا التأثـير إذعانـاً Compliance (Fisker, 1992) وتشـير هذه التسـمية إلى إصدار الفرد لسلوك ترغب فيه الجماعة دون أن يكـون متقبلاً لـه أو مقتنعـاً بمعتقدات الجماعة واتجاهاتها .

د ـ إذا كـانت الجماعــة تعتمـد فى تكوينهـا على أسـاس المصـالح المتبادلة أو مـا يسـمى تقويم السـوق market pric-ing حيـث تعتمـد علاقـات أعضـاء الجماعـة بعضهـم ببعض على حسـاب قيمـة المغارم والمغانم أو الخسائر والأرباح المترتبة علـى عضوية جماعـة ما ، ويكون الدور الاقتصـادى الذى تلعبـه الجماعة ـ أو أحـد أعضائها ـ هو مصـدر التأثير فى الآخريـن (المرجع السـابق) ويعكس هذا التأثـير تذبـذب العلاقـات المتبادلـة بين أعضـاء جماعـة واحـدة أو بينهـم وبين أعضـاء الجماعـات الأخرى ، ويمكن

تفســير تذبذب علاقـات دول العـالم بعضهـا ببعـض فـى الآونـة الأخـيرة بين المهادنة والعداوة استناداً إلى هذا .

وهكذا ، تنقســم الأمـة إلى جماعات متباينة فى أنمـاط تكوينها ومصادر التأثير الاجتمـاعى فيهـا ، ويـترتب على انتمـاء فرد مـا إلى إحداهـا التزامـه بمعاييرهـا وآرائهـا مـن القضايـا السياسـية والإجتماعية المختلفة ، هذا الالتزام الذى يـأتى استجابة لضغوط متنوعـة يمارسـها المؤثرون الاجتماعيون بالجماعـة ـ سـواء كانت الاغلبيـة أو السـلطة أو المصلحـة ... ـ والذين تختلف قدرتهـم على التأثير وتتبـاين أهدافهـم منـه ، ويـؤدى هذا الاختلاف إلى تعـدد الجماعـات وتبـاين الأفراد نتيجة انتماء كل منهم إلى إحدى هذه الجماعات التى تمارس ضغوطاً لتغيير سلوكه ومواقفه ، وكذلك يحدث الأمر ذاتـه لفرد آخر ينتمـى لجماعـة أخرى ، فتزيد هوة الخلاف بينهم .

٣ ـ الاستقطاب :

ولأن الإنسـان لايعيش بمفرده ؛ إذ هو منتم دائمـاً لجماعـة مـا ، إن لم تكن عدة جماعـات ، فـإن انتمـاءه هذا يزيد شـدة خلافـه مـع الآخر المنتمى لجماعـة أخـرى ، فمـن بـين آليـات الجماعـة ووسـائلها لتحديـد هويتهـا الاجتماعيـة واسـتمرار كيانهـا متماسكاً ، مـا يسمى «الاستقطاب Polarization » ، أى أن أحكام الأفراد (إدراكاتهم ـ معتقداتهم ـ اتجاهـاتهم ـ أنسـاقهم القيميـة) المتعلقـة بقضيـة مـا ، بعـد مناقشـتها فى إطـار جماعى ، تصبح أكثر تطرفـاً بالمقارنة بها قبل المشاركة فى هذا النقاش (عبد المنعم شـحاتة ، ١٩٩٤) ، وأيًّـا كـان مصدر زيادة التطرف هذه لدى الفـرد ، وسواء كان :

أ ـ رغبـة الفـرد فـى استحسـان الآخرين وتقديرهم (Isenberg,1986).

ب ـ أو تـأثره بما يتضمنه النقاش من معلومـات تقنـع الفرد بتغيـير موقفـه (Myers & Bach, 1986) .

جـ ـ أو رغبـة الفـرد فـي تـأكيد عضويتـه فى الجماعـة وترسـيخاً لهويتها الاجتماعية (Mackie, 1974) .

د ـ أو لما يمثله هذا النقـاش الجماعى مـن إثـارة تدفـع الفـرد لإعـادة تنظيم معتقداتـه عن موضوع النقاش وتقويمها ، مما يزيد اتسـاقها فيمـا بينهـا (Tesser, 1978) ، وبالتـالى يزيد تطرفهـا ، فأيًّـا كـان مصـدر تطرف مواقـف الفـرد من قضية ما بعد مناقشتها فى إطار جماعى ،

فالاستقطاب ظاهرة ثابتة ، تكشف عن نفسها في كثير من المواقف ، بغض النظر عن نوع القضايا المطروحة للنقاش أو موضوعها ، أو نوع المشاركين في النقاش ، أو أعمارهم أو خصالهم الشخصية ، أو سياقهم الثقافي الحضاري، أو مستوى البحث الذي من خلاله تمت دراسة ظاهرة الاستقطاب (عبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٤) ، فإنتماء الفرد لجماعة ما يزيد فرص مشاركته في مناقشة قضايا خلافية ، ويزداد بالتالي تطرف مواقفه من هذه القضايا ، وفي المقابل يفعل الآخر الأمر ذاته بانتمائه لجماعة أخرى ، وهكذا تزيد هوة الخلاف بينهما وترتفع حدته ، ويرجع ذلك - من بين ما يرجع إليه - إلى الاستقطاب أو الآلية التي من خلالها تحافظ الجماعة على استمرارها متماسكة. وهكذا أيضاً يمكن فهم التزايد المستمر لحدة الخلاف بين جماعات سياسية أو مذهبية أو اعتقادية على مدى تاريخ الأمة الإسلامية .

٤ - الإدراك الاجتماعي :

لدى كل فرد - بل كل كائن حي(*) - ميل فطري للاجتماع بآخرين ، أي التفاعل معهم ، وفي إطار هذا التفاعل ، يتفقون أحياناً ، إذا تشابهت أفعالهم أو أهدافهم أو معتقداتهم ، ويختلفون أحياناً أخرى ، إذا تعارضت هذه الأفعال أو الأهداف أو المعتقدات ، وينتج ذلك التعارض - وما يترتب عليه من اختلاف - عن :

أ - تركيز بعض منهم على أفعال الآخرين ، وإساءة تفسيرها ، أي أن الصراع - بين فردين أو جماعتين - يقتصر على المستوى السلوكي ، فيكون في هذا الحال نوعيًّا ومحدوداً .

ب - أن يرفض بعض الأفراد خصالاً وسمات معينة يتصف بها الآخرون ، هنا يكون مستوى الصراع أشد درجة من مستواه السابق .

ج - تركيز بعض الأفراد على حقوقهم واللجاجة في المطالبة بها ، في الوقت الذي يهمل فيه ما التزم به من واجبات تعد حقوقاً لأفراد آخرين ، هنا يكون الصراع صراعاً معياريًّا ، أي أنه يتعلق بمعايير السلوك المقبول وغير المقبول، وما ينبغي أن يصدر عن الفرد وما لا ينبغي صدوره ، وفي هذا الحال يكون الصراع أشد أثراً وأطول أمداً .

(*) إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

د ـ أن يتسع التعارض بين الأفراد ـ أو الجماعات ـ ليشمل كل جوانب التفاعل الاجتماعى المختلفة من سلوكية وانفعالية ومعيارية ، فى هذا الحال يتحول الصراع إلى شقاق وعداوة . (Sears; et al., 1991 : 232) .

وهذا التزايد فى شدة الخلاف والصراع يبدأ بما يسمى «الإدراك الاجتماعى Social perception الذى هو عملية تكوين الانطباعات المتبادلة ، وتعد هذه العملية نقطة البدء فى تكوين علاقات اجتماعية متبادلة ، وما يعقبها من تكوين جماعة ، فالانطباعات التى يكونها فرد ما عن آخر تشكل أساساً للتفعال المتبادل بينهما ، وتؤثر فى وجهة هذا التفاعل وفى شدته .

وتعد عملية تكوين الانطباع بمثابة عملية تكوين حكم على الآخر ، وتمر هذه العملية بمراحل ثلاث :

أ ـ تؤدى رؤيتنا لفرد ما ـ بجرد الرؤية ـ إلى تكوين انطباع أول عنه ، وحتى لو لم تتوفر لدينا معلومات تكفى لتكوين هذا الانطباع .

ب ـ هذا الانطباع عبارة عن علاقات مفترضة بين تفاصيل صورة الآخر التى يدركها الفرد من خلال النظرة العابرة ، كأن يفترض علاقة بين نوع الآخر وخصال شخصيته ، فعلى سبيل المثال نربط بين الذكورة والجرأة ، وبين الأنوثة والحياء . أو يفترض علاقة بين ملبس الآخر وموطن نشأته أو مستواه الاقتصادى الاجتماعى ، كما هو الحال عند ربط ارتداء الفرد جلباباً ذا مواصفات معينة بكونه سعوديًا أو سودانيًا أو مصريًا ... إلخ ، ليس هذا فحسب ، بل ربط مواصفات الجلباب بإقليم معين فى المجتمع المصرى ، على سبيل المثال نربط مواصفات الجلباب وكون لابسه صعيديًا أو إسكندريًا... إلخ .

وهذه العلاقات المفترضة بين تفاصيل صورة الآخر ، يتم التوصل إليها من خلال عملية الاستدلال السببىCausal inference أى عزو أشياء إلى أشياء أخرى ، وتعد هذه العملية ، أى العزو والاستدلال ، خطوة سابقة لكثير من مظاهر السلوك الاجتماعى كالتفضيل والحب والسلوك الجماعى ، هذه المظاهر التى من خلالها تكون المفاضلة بين الجماعات السياسية أو المذهبية أو العرقية أو الدينية ... إلخ .

جـ ـ ومن خلال هذه العلاقات

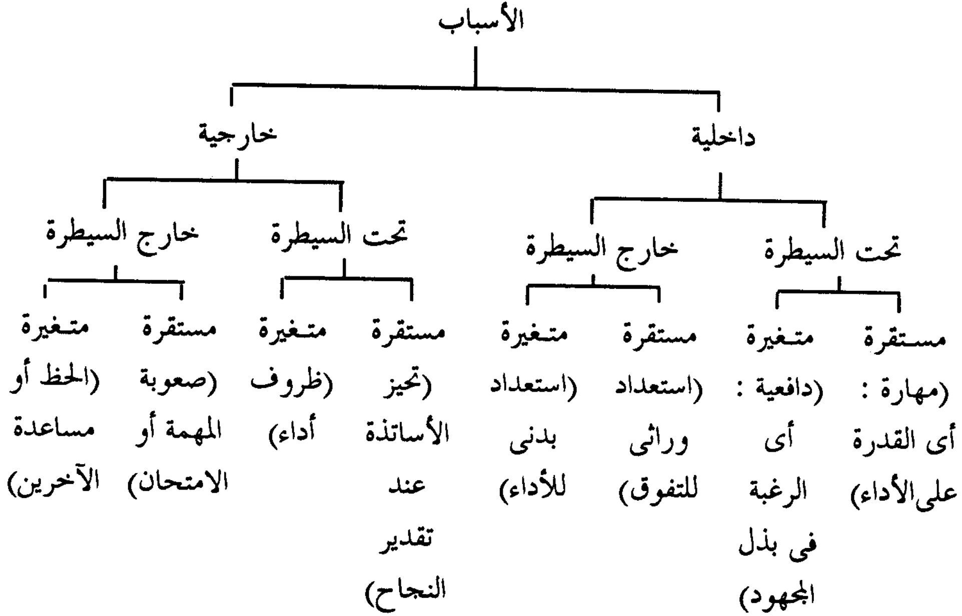
المفترضة التى يكونها الفرد ، يتوقع سلوك الآخر فى موقف معين ، وتحدد هذه التوقعات تفسير الفرد لسلوك الآخر وردود أفعاله تجاه هذا السلوك Berkowitz, 1986 : 187; Show & Costanzo, 1982 : 233) .

وتعكس المراحل الثلاث السابقة نشاطاً ذهنيًّا عقليًّا يقوم به الفرد فى أثناء سعيه لتكوين انطباع عن الآخر ، ويتمثل هذا النشاط الذهنى فى كل من:

أ ـ التصنيف فى فئة نمطية Categ-orization ، ويعد هذا التصنيف عملية أساسية فى تكوين الإنطباع ، ويعتمد على القالب النمطى أو الصورة النمطية، وهو مفهوم استعاره «ولتر ليبمان » Lipmann من تقنيات الطباعة ، وعرفه بأنه صورة شديدة التبسيط للعالم ، تجعل الفرد يراه بشكل مفهوم ويراه ذا معنى أكثر مما هو عليه فى الواقع(Brown, 1986 : 586)، وتتسم هذه الصورة بـ : البساطة وعدم التعقيد ـ وتتسم بكونها خاطئة أكثر من تمتعها بالدقة ـ ويتم التوصل إليها عن طريق النقل عن شخص آخر وليس عن طريق الخبرة المباشرة بموضوعها ـ وتقاوم التعديل الذى يتلاءم مع خبرات التفاعل الجديد مع موضوعها إذا حدث هذا التفاعل ـ ولا يوجد دليل يؤيدها ، وإن وجد فهو واه (Harding, 1969) .

وفى ضوء هذه الصورة النمطية ، يتم تصنيف الآخرين ، ويتم عزو صفات الجماعة التى صنفوا ضمنها إليهم(*) ، وتلعب هذه الصفات التى تم عزوها إليهم دوراً مهمًّا فى إثارة توقعات الأفعال الصادرة عنهم وردود الفعل إزاءها ، وغالباً ما تتسق تصورات القائم بتكوين الانطباع تجاه الآخرين مع التوقعات التى يرسمها لسلوكهم ، ودائماً ما تكون هذه التوقعات متحيزة ضدهم (Capeland 1994) . وهكذا ، فلأن الصور النمطية التى يكونها أحد المخالفين عن الآخر سلبية ، فإنها تؤدى به إلى عزو صفات سلبية إلى الآخر ، ثم توقعات بسلوك عدائى سيصدر عنه ، فيبادر هو بالاعتداء عليه ، مما يزكى أواصر الصراع والتنافس بينهما ، ويعوق

(*)أظهرت محاكمة النجم الرياضى الأمريكى الأسود O . J. Simpson المتهم بقتل زوجته البيضاء وصديقها ـ وقد تمت هذه المحاكمة فى ديسمبر ١٩٩٥ ـ وأظهرت مدى تأثير الانطباعات والصور النمطية المتبادلة بين البيض والسود بالمجتمع الأمريكى فى مسار العدالة ، وأثارت جدلاً واسعاً حول التعصب والتحيز السلالى أو العنصرى .



تفاعلهما معاً فى المستقبل ، فتزيد هوة الخلاف بينهما .

ب - ويأتى بعد التصنيف فى فئة نمطية ، استنتاج الأسباب التى تدفع الآخر للاستجابة بشكل معين فى موقف ما ، فعلى سبيل المثال ، حينما يتبسم لك شخص يقابلك فى الطريق ، فإنك تتساءل عن سبب ابتسامته لك ، وتحاول استنتاج هذا السبب ، مثال آخر، فأنت حينما تسمع صراخ شخص ما ، فإنك تحاول معرفة سبب صراخه ، يتم ذلك من خلال تنظيم مشاهداتك أو تفاصيل الموقف فى علاقة سببية ، وأنت تقوم بهذا التنظيم لكى تكون فهماً متسقاً - أو رؤية متكاملة - للبيئة المحيطة بك ، وبواسطة هذا الفهم وتلك الرؤية تتمكن من التعامل مع الموقف بشكل يحقق لك الإحساس بالراحة وتصل من خلاله إلى أهدافك (Berkowitz,1986:186)والأسباب التى نعزو إليها سلوك الأفراد الآخرين يوضحها الشكل المبين بعاليه الذى يفسر أسباب النجاح الدراسى على سبيل المثال :

والذى يرجح سبباً من هذه الأسباب على الآخر هو : إما قاعدة التلازم -Co

variation أى كيفية ربط التغير فى الحالة الدراسية (النجاح أو الفشل) بالتنوع فى الموقف (ظروف الامتحان)، وإما قاعدة التغاضى Discounting أى إبراز أحد عناصر الموقف (أسباب التغير فى الحالة) والتغاضى عن بقية العناصر أو الأسباب . والفرد يفعل هذا على الرغم من أن ظهور حدث ما هو نتيجة تضافر عدة أسباب معاً ، فحادث سير مثلاً ينتج عن : كون السيارة تسير بسرعة شديدة ، أو أن هذا السير كان فى الاتجاه الخاطئ ، أو لصعوبة الرؤية لوجود ضباب أو ما شابه ، أو لعدم اعتياد السائق المنطقة التى يسير فيها ، أو لأنه يقود سيارته وهو تحت تأثير مخدر ، أو ... إلخ .وحينما نشاهد هذا الحادث، فإننا نتغاضى عن كل هذه الأسباب ، ونعزو الحادث إلى سبب آخر مختلف (Santrock, 1986 : 411) . وفى أغلب الأحوال ، يكون العزو ، أى استنتاج أسباب فعل ما صادر عن الآخر، خاطئاً ، وتكون بالتالى الأحكام التى بنيت عليه ـ أى العزو ـ غير صحيحة ؛ لأن ما بنى على خطأ فهو خطأ .

ويرجع خطأ العزو أو الاستدلال إلى عوامل عديدة ، أهمها : التسرع فى القيام به ـ والبعد عن استخدام القواعد المنطقية عند إجراء الاستدلال ـ وميل الشخص القائم بالاستدلال للتساهل والتهاون ـ ورغبته فى تحقيق ذاته بالإصرار على صحة انطباعاته الأولية (المرجع السابق : Sears, et al, 1991 94 - 95; Berkowitz, 1986 : 323; 414) .

جـ ـ ويأتى بعد التصنيف ، ثم عزو السلوك إلى أسبابه : التقويم evaluation أى إصدار حكم إيجابى أو سلبى على الآخر ، فالانطباع الأول الذى بموجبه يتم تصنيف الآخر فى فئة نمطية وعزو صفات إليه ، هذا الانطباع نواة اتجاه attitude ـ سواء كان إيجابيًّا أو سلبيًّا ـ نحو الآخر ، وكأى إتجاه له جانبه الأساسى وهو التقويم (عبد اللطيف خليفة وعبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٤ : ١٥) ، الذى يتأثر بميل الفرد إلى الاتساق ، وميله إلى التحيز ، أى تفضيل من يتشابه معه فى الشكل والأيديولوجية ، ورفض من يخالفه فى ذلك (Santrock. 1986: 484) . وهكذا يؤدى تصنيف الفرد فى فئة ما إلى عزو صفات إليه ليست فيه ،

وإرجاع سلوكه إلى أسباب غير التى دفعته إلى إصدار هذا السلوك ، وتقويم سلوكه بشكل يعكس التحيز ضده . أى أن كل فرد يصنف نفسه فى جماعة (هى الجماعة الداخلية ingroup) ويعد نفسه عضواً فيها، ويصنف الآخر فى جماعة أخرى (الجماعة الخارجية outgr-oup) ويعده عضواً فيها ؛ ونتيجة ذلك يفضل أعضاء جماعته (تمركز عنصرى أو عقائدى) ويزيد هذا التفضيل من تقديره لذاته وتقديره لجماعته وعزو الصفات الإيجابية إلى أعضائها وتقدير أعمالهم ، وفى المقابل ، يكون تقديره للآخر سلبيًّا، ويعزو إلى الجماعة التى ينتمى إليها الآخر (الجماعة الخارجية) وإلى أعضائها صفات سلبية ، ويبخس قدرها ويقلل من قيمة أعمالها ، ويدرك أى شيء صادر عن أعضائها وكأنه اعتداء على جماعته يجب دفعه بعدوان مضاد (Brown, 1986 : 552) . وقد يكون قادراً على هذا الدفع الآن ، إلا أنه فى كثير من الأحيان قد لا يستطيع ذلك ، بل وقد لا يكون غير قادر أيضاً على تجنب التعامل مع الآخر - أو الحدث أو الموقف المرتبط به - غير المرغوب ، فى هذه الحالة سيحاول الفرد إصدار سلوك يستطيع به إنقاص المترتبات السلبية للتعامل مع الآخر - أو الحدث المرتبط به - فى هذه الحالة ، فإن رد الفعل الأكثر اندفاعًا ومباشرة وشيوعاً بين الأفراد هو إعادة التعامل retreat مع الآخر ومع الحدث المرتبط به باعتبارهما منفصلين - وهذا يعد معاكساً لعملية العزو المشار إليها آنفاً - بمعنى أن يمارس الفرد أنشطة تمده بتفسيرات تمكنه من رؤية كل من الآخر والحدث بشكل مختلف ، وهذه الأنشطة وما يترتب عليها من تفسيرات تعمل على :

١ - تقليل شدة الحدث من خلال تبريرات تعمل على توضيح عدم مسئولية الآخر عن حدوث الحدث أو التسبب فيه ؛ إذ لم يفعل شيئاً يتعلق بحدوثه ، أو على الأقل تقلل هذه التبريرات من مسئولية الآخر عن الحدث إذا كانت مسئوليته عن وقوعه مؤكدة ، ومصدر هذا التقليل هو حسبان المترتبات غير المرغوبة المصاحبة للحدث لم تكن مقصودة ، أو نتجت عن تدخل آخرين أو عن الظروف (أى عوامل خارجة عن إرادة المتسبب فى الحدث) ، وقد يكون مصدر هذا التقليل أيضاً هو محاولة إنقاص درجة سلبية المترتبات غير

المرغوبة للحدث ، وجعلها أقل سلبية مما هى عليه بالفعل ، وذلك بإصدار تبريرات مباشرة أو غير مباشرة تتمثل فى اللجوء إلى المقارنة الاجتماعية ، أى مقارنة ما يصدر عن الآخر بما صدر عنه من قبل أو بما يصدر عن غيره ، وتتمثل أيضاً فى عد الحدث وسيلة لتحقيق غاية عالية أو ماشابه(*) .

٢ ـ أو إظهار الحدث غير المرغوب والمرتبط بالآخر باعتبار أنه ليس مصدراً للخوف ، وقيام الآخر بالطمأنة من خلال الاعتراف بمسئوليته عن ذلك الحدث والإعتذار عن إصداره ومعاقبة من تسبب فى هذا الإصدار واستحسان السلوك البديل والوعد بإصداره مستقبلاً(**) (Shaw & Costanzo, 1982 : 333 - 334) .

وتعد إعادة التعامل هذه استثناءً ؛ إذ القاعدة هي أن يتعامل الفرد مع الآخر وفق المراحل المشار إليها سابقاً ، أى تكوين انطباع أول بموجبه يتم تصنيف الآخر فى فئة نمطية (الجماعة الخارجية) وعزو صفات سلبية إليه وتقويم عضويته فى الجماعة وسلوكه تقويماً سلبياً ، ونتيجة كل هذا تزيد هوة الخلاف بين أعضاء الجماعات المتعددة .

٥ ـ سمات شخصية المتخالفين :

ينشق بعض الأفراد عن الجماعة ، ويشكلون جماعة أخرى ويأتى هذا الانشقاق نتيجة عدم قدرة بعض منهم على الإلتزام بمعايير الجماعة الأولى ، أو لعدم قدرة هذه الجماعة على إشباع حاجات بعض آخر ، وهكذا تتعدد الجماعات وتتعارض أهدافها ويكون تصنيفها ـ وكذلك الأفراد ـ على أساس العضوية ـ إلى جماعة داخلية وأخرى خارجية ، ويترتب على هذا التصنيف إتساع هوة الخلاف بين أفراد الأمة الواحدة ، وتلعب خصال شخصية الأفراد المتخالفين وميل بعضهم إلى الشدة والغلظة ، مقابل ميل بعضهم الآخر إلى اللين والتسامح ، تلعب هذه الخصال وذاك الميل دوراً مهمًّا فى تعميق الخلاف بين الأفراد والجماعات ؛ إذ

(*) ينطبق هذا الحال علىعلاقة العرب بإسرائيل فى الآونة الأخيرة ؛ إذ يحاول بعض العرب تسويغ التطبيع مع إسرائيل على هذا المنوال.

(**) هكذا تفعل الولايات المتحدة فى كثير من المواقف التى لا ترضى بعض الدول .

يؤدى اختلاف الفرد فى الميل - وكذلك فى درجته - إلى الشدة أو إلى اللين ، يؤدى هذا الاختلاف إلى تمايز أفكارهم وتباين أفعالهم ، ويمكن أن تجد دليلاً على ذلك من المقارنة بين فقه ابن عمر وفقه ابن عباس ، وعزو الفروق بينهما إلى ميل الأول للشدة وميل الثانى للتسامح ، وقبل هذا الخلاف ، يمكن أن نستدل بالخلاف الذى كان بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فى بعض المواقف(*) ، هذا الخلاف الذى قال فيه رسول الله ﷺ :«إن ا لله ليلين قلوب الرجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب الرجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿**فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصاني فأنك غفور رحيم**﴾ (إبراهيم :٣٦) ، وكمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ (المائدة : ١١٨) ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال ﴿**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ يونس : ٨٨) ، وكمثل نوح عليه السلام قال : ﴿**رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارًا**﴾ (نوح : ٢٦) يوسف القرضاوى ، ١٩٩٠ : ٤٤ - ٤٧) .

ويرجع المؤرخون تزايد الفتن واتساع خلافات المسلمين فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى لينه وافتقاده الحزم(**) (محمد أبوزهرة ، ١٩٨٩ : ٢٩) وأيدت بحوث علم النفس المعاصر ذلك ؛ حيث أدت الفروق فى سمات الشخصية إلى ظهور تفضيلات سياسية واجتماعية متنوعة ، ففى الخمسينيات من هذا القرن ، بدأت سلسلة دراسات تهدف إلى فهم التعصب والاتجاهات المعادية للسامية ، من خلال مقارنة سمات شخصية الأفراد الأكثر تعصباً

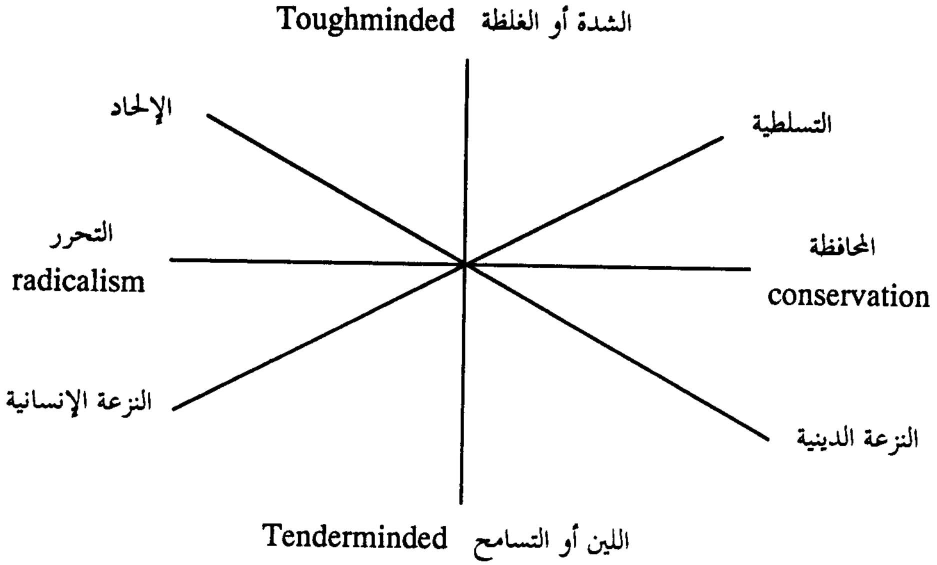
(*) كموقفهما من أسرى بدر خصوصاً ، ومن قضايا أخرى على وجه العموم .

(**) لعل إجراء دراسات نفسية لشخصيات الصحابة - رضى الله عنهم - بواسطة أسلوب تحليل مضمون السير، يكون مفيداً فى فهم دور سمات الشخصية - كإخلاص أبى بكر وحزم عمر - التى أدت إلى تضييق خلافات المسلمين فى حقبة ما من تاريخهم ، ودور تلك - كتهاون عثمان ودهاء معاوية - التى أدت إلى تعميقها فى حقب أخرى.

بسمات شخصية الأفراد الأقل تعصباً ، وقد تبين من هذه الدراسات وجود فروق بين الفئتين من الأفراد في المرونة وفي القدرة على التكيف . ثم اتسع مجال هذه الدراسات ليشمل فلسفة الأفراد الخاصة أو نظرتهم للحياة ، والتي تنتظم فيها اتجاهاتهم نحو المواقف الاجتماعية المختلفة ، وتسمى هذه الفلسفة أو النظرة : الأيدلوجية(*) . وأجريت هذه الدراسات بهدف فهم الأساس النفسي للفاشية وإنعكاساته على التوجهات السياسية والاقتصادية في المجتمعات المعاصرة ، وفهم تباين بناء الشخصية لدى أصحاب الأيديولوجيات (الفلسفات) المختلفة ـ خصوصاً اليمينية ـ الذي يحدد كلاً من آمالهم وطموحاتهم ، ومخاوفهم ومصادر توترهم ، والذي يجعلهم يظهرون التعصب الشديد لمعتقداتهم ، مصحوباً بالرفض الشديد لمعتقدات الآخرين . ثم اتسع مجال هذه الدراسات مرة أخرى ليشمل معرفة الفروق بين الأشخاص المتسمين بالجمود والانغلاق ، والذين يشكلون جمهور التعصب العقائدي الايديولوجي) سواء كانوا متعصبين يمينيين أو متعصبين يساريين ـ المتمثلين في «اللينينيه» ـ وبين أصحاب الذهن المتفتح والمرن كما يمثلهم أنصار الحريات الفردية أو «الليبراليون» ، وكان تطرق «أيزنك» لهذه الاختلافات معتقداً أنها إنعكاس لفروق وراثية(**) (Billing, 1982: 102- 103; 117 ; 120) ، وتمكن من تفسير سيادة أيديولوجية سياسية في فترة ما من خلال تحديد

(*) يتعامل علماء النفس مع علاقة الفرد بغيره ـ من الأشخاص أو المواقف أو القضايا أو الأفكار ـ باعتبارها نتاج حكم يصدره الفرد على غيره ، وهذا الحكم إذا كونه الفرد عن جانب مفرد ، كاتسام ـ أو عدم اتصاف ـ الآخر بصفة ما ، سمي «معتقداً» beleif ، وإذا عبر الفرد عن هذا الحكم المفرد تعبيراً لفظيًا فقط سمي «رأياً» opinion ، فإذا تعددت جوانب الآخر التي تشملها أحكام الفرد ، وتعددت تعبيرات هذا الفرد ـ اللفظية وغير اللفظية ـ عنها أيضاً ، اتسق كل هذا معاً سمي «إتجاهاً» attitude ، فإذا تعددت الإتجاهات وانتظمت في نسق أصبح موجهاً لسلوك الفرد سمي «قيمة» value ، فإذا إنتظمت القيم معاً في نسق وتبادلت التأثير سمي «أيديولوجية» idiology والتي تعد الأكثر عمومية وتجريداً ؛ إذ تعكس رؤية الفرد الواحدة لقضايا متباينة ، لذا لاتتوفر إلا لعدد محدود جداً من البشر ، وإذا كانت الأيديولوجيات في العالم كله لاتتجاوز أصابع اليد ، فبالإمكان إحصاء عشرات القيم ومئات الاتجاهات وآلاف المعتقدات والآراء . (انظر عبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٢ أ : ٥٤) .

(**) لتقويم محاولات اكتشاف الأساس النفسي للأيديولوجية ، أنظر : Billing, 1982: 96 - 134 .



سمـات شخصية دعاتها أو قادتها، وذلك فى ضـوء الأبعـاد الموضحـة بالشـكل السابق :

وترتبط هذه الأبعاد ببعدى الانبساط والذهانيـة اللذان يعـدان - بالإضافـة إلى العصابيـة - أساسـاً لفهـم الشـخصية من وجهـة نظر « أيزنك» فهناك تداخل بين الانبسـاط والشـدة Tough minded وكلا البعدين تحددهمـا عوامل وراثيـة ، كمـا أن الذهانيـة عـامل مهـم لتحديد إتجاهات الأفراد التى يغلب عليها الشدة، وأن إرتفـاع درجـة الفـرد على بعـد العصابيـة يعـد مؤشـراً جيـداً للتمركز السلالى (العنصرى) وعدم تحمل أعضاء الجماعة الخارجية ، كمـا يعد المنبسطون أكثر استغراقاً فى العلاقـات الاجتماعية وأكثر انفتاحًا على الآخرين (Wilson, 1981) .

وقـد أمكـن فى إحـدى الدراسـات التىقـارنت بـين عـدد مـن الجماعـات المختلفـة عقائديًـا وأيديولوجيًـا ، أمكن إرجـاع تمـايز اسـتجابات أعضـاء هذه الجماعات المختلفـة لمواقف إجتماعية إلى فـروق بينهـم فـى سمـات الشـخصية وخصوصـاً التصلب والنزعـة التسـلطية وحب النظـام والتدرج الوظيفـى (محمد حسـن عبد الله وعبـد المنعم شـحاتة ، ١٩٩١) ، كما تبين عدة بحوث أن لدى

بعض الأفراد مفهوماً مستقلاً للذات، وهؤلاء الأفراد يتسمون بالصفات التالية:

أ ـ يرون أنفسهم أقل تشابهاً مع الآخرين .

ب ـ ينظمون المنبهات الاجتماعية في شكل هرمي متدرج .

جـ ـ مستعدون لتقديم حلول لمشكلة ما .

د ـ مستعدون لتقبل أية معلومات متعارضة وغير متسقة .

وهؤلاء الأفراد يضعون في حسبانهم عند تقديم أنفسهم للآخرين ، أنهم الأكثر تأثيراً في السياق الاجتماعي والأكثر تحملاً للاختلاف ، أي أكثر تعايشاً مع مخالفة الآخرين لهم أكثر من التعايش مع التشابه ، وبالتالي يميل هؤلاء الأفراد لإثارة الخلاف خاصة وأن دافعيتهم مرتفعة لإظهار القوة والسعي لأن يكونوا أقوياء (Waike, 1994) .

وهكذا ، تلعب خصال شخصية الأفراد وسماتهم دوراً أساسيًّا في تحديد مدى تقبلهم لاختلافهم بعضهم عن بعض ، وأي درجة من الخلاف يمكنهم تحملها ، كما تحدد أيضاً نوعية ودرجة الاستجابة لموقف الخلاف والمخالفين .

٦ ـ التحكم في تبادل المعلومات :

ولأن التعصب ينتج عن تصنيف الآخر في فئة الذين نختلف معهم ـ أي الأعداء ـ وأن أساس هذا التصنيف هو الصورة النمطية أو معتقد شديد التبسيط، أي معلومة ، حيث يشير المعتقد إلى معلومة تلقاها الفرد ، سواء تم هذا التلقي من خلال الملاحظة المباشرة ، أو بواسطة عمليات الاستدلال ، أو من مصادر خارجية ، ويعد المعتقد بهذا المعنى حكماً باحتمال تمتع موضوعه بخصائص معينة ، ولأن المعتقدات معلومات احتمالية ، فهي تختلف في درجة التأكيد (عبد المنعم شحاتة ، ١٩٨٩) ، وطبقاً لهذا المعنى ، يمكن لأي طرف ثالث أن يزيد هوة الخلاف بين طرفين تعصب أحدهما ضد الآخر ، وتتم هذه الزيادة من خلال التحكم في عملية تبادل المعلومات(*) بينهما ؛ إذ بإمكان هذا الطرف الثالث :

(*) يكشف «شيللر» (١٩٨٦) أساليب هيئات الإعلام الأمريكية للسيطرة على عملية تداول المعلومات ، ومن خلال هذه العملية يشكلون معتقدات الآخرين وسلوكهم وفق نماذج تخدم أهداف السياسة الغربية ، ويمكن استنتاج أهمية هذه العملية مما أحدثه تبني «اليونسكو» ـ منذ عقدين ـ لنظام إعلامي جديد يقلل من هذه الهيمنة، فقد أدى ذلك إلى أزمة خطيرة بين «اليونسكو» والولايات المتحدة والمملكة المتحدة .

أ ـ حجب هذه المعلومات (أى التعتيم الإعلامى) .

ب ـ تشويهها ، إما بحذف جانب من المعلومات ، وإما بإضافة أجزاء إليها، وإما بإعادة ترتيب فقراتها ، بحيث يحدث ذلك تغييراً مقصوداً فى معناها .

جـ ـ تقديم المعلومات بطريقة غامضة تساعد على تضارب الفهم والتأويل(*) ، وترسخ الخلاف وتعمقه .

وكثيراً ما تلجأ الأمم المعادية إلى استخدام الحرب النفسية بوسائلها المختلفة سواء الكلمة المكتوبة أو الكلمة المسموعة أو الصورة المرئية ، وبواسطة هذه الوسائل تستطيع الأمم المعادية أن :

أ ـ تبث شائعات وفكاهات ونكات، بهدف إثارة عوامل الفرقة بين أفراد الأمة الواحدة ، لإضعاف إيمانهم بعقيدتهم ومبادئهم .

ب ـ تضخيم أخطاء الماضى ، واستغلال هذه الأخطاء لإضعاف الروح المعنوية للأمة (عبد الحميد الهاشمى ، ١٩٨٩ : ٢٧٢) ، ويذكر ابن كثير (١٩٨٠ ، ٢ : ٨٥ ـ ٨٦) ما حدث حينما مر أحد اليهود بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه ما هم عليه من الإتفاق والألفة ، فبعث رجلاً كان معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم «بعاث» ففعل الرجل ولم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتشاوروا ونادوا بشعارهم ، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى «الحرة» فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل يسكنهم ويقول : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» .

وهكذا ، فإن بإمكان أى طرف ثالث أن يزيد هوة الخلاف بين فردين أو جماعتين من خلال قيامه بالتحكم فى حجم ونوعية المعلومات المتبادلة بينهما ، وفى طريقة تبادلها .

٧ ـ صعوبة الاتصال أو التخاطب :

أضف إلى تدخل طرف ثالث فى عملية تبادل المعلومات مما يؤدى إلى إعاقتها ، أن هذه الإعاقة تنتج فى المقام الأول عن صعوبة تبادل الاتصال (التخاطب) المباشر بين فردين أو جماعتين، فهذه الصعوبة تخلق الفرصة لتدخل الطرف الثالث لإعاقة عملية تبادل المعلومات بين أفراد الجماعتين ، وتتمثل صعوبة الاتصال فى :

(*) كما فعل المستشرقون بأحداث تاريخ الأمة الإسلامية ومصادر فكرها .

أ ـ صعوبة قيام أحد المتخالفين بدور مصدر المخاطبة ؛ إذ يلعب تصنيف الفرد كعضو فى جماعة خارجية دورًا مهمًّا فى إعاقة مخاطبته للآخرين من غير أعضائها ، وإنما هم أعضاء جماعة داخلية.

وتؤدى هذه الإعاقة إلى تعميق خلافه معهم ، حيث تبين بحوث الاستمالة بالمخاطبة persuasion through communication أن المتلقى يقوم ـ وقبل تلقيه مخاطبة المصدر ـ بعملية العزو السببى causal attribution ، أى توقع الأسباب التى يرى المتلقى أن المصدر تبنى موقفه ـ المعبر عنه فى المخاطبة ـ على أساسها ، حيث تتوقف استجابة المتلقى لهذه المخاطبة على معلومات متوفرة لديه عن خصال شخصية المصدر وعن الضغوط الموقفية التى يتعرض لها(*)، واعتماداً على هذه المعلومات ، يتوقع المتلقى الموقف الذى سيتبناه مخاطبه فى مخاطبته ، وتؤثر درجة اتساق أو تعارض هذا التوقع مع الموقف الفعلى للمصدر على معالجة المتلقى للمخاطبة أثناء تلقيها ، تلك المعالجة التى تتم وفق الخطوات التالية .

١ ـ يستنتج المتلقى أسباب تبنى مصدر المخاطبة لموقفه المعلن عنه فى المخاطبة ، وهل يرجع هذا التبنى لخصال شخصيته أو لضغوط خارجية تمارس عليه أو أن ذلك يرجع إلى أدلة منطقية وواقعية تتضمنها المخاطبة ؟

٢ ـ بناءً على ذلك ، يحدد المتلقى درجة تحيز مصدر المخاطبة على أساس أن :

أ ـ اتساق توقع المتلقى لموقف مصدر المخاطبة مع موقف هذ المصدر الفعلى ، فى ظل اعتقاد المتلقى بأن هذا المصدر تبنى موقفه استناداً إلى خصال شخصية أو إلى مطامع يسعى لتحقيقها من وراء المخاطبة ، أو إلى ضغوط تمارس عليه ، فإن المتلقى يعد مصدر المخاطبة متحيزاً .

ب – إذا لم يتسق توقع المتلقى لموقف هذا المصدر مع موقفه الفعلى ، أو إذا تبنى هذا المصدر موقفه استناداً إلى أدلة منطقية وواقعية ملائمة ؛ فإن المتلقى يعده غير متحيز .

(*) يعانى الوعاظ الأزهريون فى مصر من هذه النقطة أحياناً ـــ إذ يتوقع بعض المتلقين المعارضين للحكومة المصرية أن الوعاظ الأزهريين يدافعون عن موقف الحكومة استجابة لضغوط تمارسها عليهم ، ويرفض هؤلاء المتلقون الإستماع إليهم بغض النظر عن مضمون ما يقدمه هؤلاء الوعاظ .

٣ ـ فإذا أدرك المتلقى أن مصدر المخاطبة متحيز ، فسوف يقوم بتقويم المخاطبة بعناية ، وسيجتهد فى إعداد حجج مضادة لهذه المخاطبة ، مما يقلل من درجة تقبله لها ويزيد بالتالى من احتمالات رفضه إياها . أما إذا أدرك المتلقى أن مصدر المخاطبة غير متحيز ، فلن يقوم المتلقى بتحليل جيد للمخاطبة ولن يقوم بإعداد حجج مضادة لها ، وإنما سيكون أكثر ميلاً لتقبلها والاقتناع بها وتبنى الموقف الذى تدعوه إليه هذه المخاطبة .

وهكذا ، يقلل تصنيف مصدر المخاطبة فى جماعة خارجية من قدرته على مخاطبة الآخرين مما يعوق تبادل المعلومات بينهما ويزيد بالتالى هوة الخلاف . (عبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٥، عبد اللطيف خليفة وعبد المنعم شحاتة ، ١٩٩٤ : ٢١١) .

ب ـ صعوبة قيام أحد المتخالفين بدور المتلقى ، حيث يلعب التعرض الانتقائى selective exposure دوره الكبير فى زيادة هوة الخلاف بين أعضاء الجماعات المتخالفة ، حيث يسعى الفرد إلى تعريض نفسه للمعلومات التى تتسق مع وجهة نظره ، أو مع وجهة نظر الجماعة التى ينتمى إليها أو يطمح فى أن يكون عضواً بها ، كما يسعى هذا الفرد ، وفى الوقت نفسه ، إلى تحاشى التعرض للمعلومات التى تناقض تلك الوجهة من النظر ، وإذا تعرض رغماً عنه لهذه المعلومات المعارضة لوجهة نظره أو وجهة نظر جماعته ، فإنه يدرك هذه المعلومات على أنها أقل وضوحاً وأقل تشويقاً وأقل دقة مما هى عليه بالفعل ، وهذا ما يسمى «التحريف الإدراكى» (المرجعان السابقان : ١٩٨ - ١٩٩) .

وهكذا يلعب انتماء الفرد لجماعة ما دورًا مهمًّا فى إعاقة تلقيه ومخاطبته عضو جماعة أخرى ، وتزيد هذه الإعاقة من هوة الخلاف بين أعضاء الجماعتين .

تلعب إذن الجماعة التى ينتمى إليها الفرد دوراً أساسياً فى تعميق خلافاته مع الآخرين أعضاء الجماعات الأخرى ؛ وذلك نتيجة ممارسة الجماعة الضغوط عليه حتى يظهر الالتزام بمعاييرها وآرائها أى المجاراة أو الإتباعية ، وقد يؤدى هذا إلى زيادة تطرف مواقفه أى الاستقطاب، من القضايا الخلافية ، وزيادة تعصبه لهذه المواقف ، وزيادة رفضه لمواقف الآخرين من ذات القضايا.

كذلك أيضاً تلعب الجماعة التى ينتمى إليها الآخر دورها فى تعميق هذه الخلافات ، فلأن الآخر سيتخذ موقفاً مسبقاً - استناداً إلى وجهة نظر جماعته المألوفة جدًّا له - برفض مخاطبة الفرد له والسعى إلى عدم تعريض نفسه لها واتخاذ السبل المختلفة لإعاقة هذا التعرض بما فى ذلك تشويه مضمون المخاطبة ، لأنه سيعد المخاطب قد قام بهذه المخاطبة استجابة منه لضغوط جماعته أو سعياً منه إلى تحقيق مكانة مرموقة فى جماعته . لكل هذا سيكون صعباً على الفردين تسويغ مواقف كل منهما للآخر من خلال المخاطبة .

وهكذا تكشف بحوث علم النفس عن عدة آليات تزيد الخلاف بين فردين أو جماعتين ، ومن الضرورى فهم هذه الآليات عند التعامل مع هذا الخلاف .